

الوشاح الأبيض

محمّد عبد الحكيم عبد الله

الوشاح الأبيض

محمد عبد الحكيم عبد الباق

obeykandi.com

الوشاح الأبيض

كانت من سكان حى وطنى عتيق ، انبت عن الزمان ووقف حيث
هو لم يزايل مكانه ولم يغير تقاليده . بقى رابضا عند سفح القلعة ينظر إلى
القاهرة التى تجرى مع ركب الحضارة نظرة كلية لا يكاد يستبين بها موقع
خطاها وكأنه يزعم وهو فى مرقد هذا أن المدينة تجرى نحو شىء مؤسف ،
وأنه لا شىء خير من القديم .

كانت شبائيكه ولا تزال من ذوات « المشرييات » وأبواب بيوته من
ذوات المصراع الواحد ، أما الحارات فإنها جميعها فى استقامة الحيات ،
ومداخل البيوت ذات الدهاليز تذكرك ببدء السقائين وهم يعبرون العتبات
متمقوسة ظهورهم تحت أعباء القرب ، وترسل إلى أنفك عطنا يرجعك إلى
أيام الطفولة إن كنت اليوم ممن جاوزوا السبعين .

أما سلم بيتها فإنه قد تآكلت درجاته حتى أصبحت منحوتة الأطراف
كبقايا قطع الصابون . وكثيرا ما طوحت بصاعدين أو نازلين كما يفعل
الحصان الجامح . ويقوم على السلم إطار خشبي قلق غير مستقر يتراقص
من لمسات الأطفال لكنه لم يفقد مزيته في أن يرشد قدمك وأنت في الظلا
إلى حدود الدرج الذي تصعده حتى لا تهوى من حلق .

هذا هو بيتها !!

لو فتش الفقر في الأحياء الخالية عن مسكن يرتضيه ويوافق ذوة
ما اختار إلا هذا المكان ، لأن هناك تآلفا عجيبا بين الساكن والمسكور
كالتآلف بين المواقع والأحياء المنطوية في أجوافها .

بنيت حجراته قديما على السعة ويسكنها اليوم أناس أقاموا على الضيق
والفاقة !! ولعل مالكة فيما مضى كان يدعوها بالمنزل الكبير غير أنه اليو
ينظر إليه نظرة ملؤها الأسف لأنه يراه شيخا لم تكتب له الراحة في أخريات
حياته وحطاما لا يزال متعبا مكدودا من وثبات الغلمان على السلام واستلقا
السيدات البدنيات على حواف النوافذ معظم ساعات النهار يتسلين « باللب
والحديث إلى الجارات المطلات من توافد المنزل المقابل .

لكنه على الرغم من كل شيء يعج بالسكان كما تعج خلية النحل
ولم يكن هناك تنافر كبير بين منظره ومنظر سكانه إلا إذا استثنينا
هي . . . ولعلها كانت تحس بذلك كما يحسه أهل الحي ، ولعله قد حدث
لها أنها سمعت وهي في طريقها إلى المدرسة أو في سبيلها إلى البيت ، أحدا
التجار ، أو أصحاب المقاهي أو الجالسين على الكراسي في عرض الطريق

سمعت واحداً منهم يهمس وهو يهز رأسه فيقول : يا خسارة ! ! !
كانت تتعثر في خطاها وتكاد تدوس ذيل ثوبها القصير كلما سمعت
هذه الكلمة ، ويتجمع نصف دمها الفاتن في وجهها المستطيل حتى يكاد
ينبثق من الخدين ثم يفارقها الحياء بعد أن تعبر « البوابة » الكبرى
في مدخل الشارع ، ليحل محله شيء من الغرور الباكر والاعتداد
بالنفس والاعتزاز بالحسن وتجري هذه جميعها في رأس لم يتجاوز بعد
سنة عشر ربيعاً .

كان جمالها يعيش على الكفاف ويسكن هذا المنزل . وكانت بكر
أبويها . . . أعني أكبر بنين وبنات سبعة أنتجهم أبوان ذكيان في
سبعة عشر عاماً فحسب ، مع ملاحظة أنهما لا يزالان في خريف العمر
وإن المناعة الطبيعية ضد المرض كثيراً ما تكون مرتفعة بين أبناء الفقراء !
وتسكن هذه الأسرة الصغيرة شقة في ذلك البيت الكبير فيها حجرتان
اثنتان إذا أغفلنا حساب « الصالة » . وقد يستطيع إنسان ما أن يتمتع
بالهدوء فيها ابتداء من منتصف الليل حتى قبيل الشروق .

كانت « درية » تحس أنها مظلومة وأن الظروف قد قذفت بها جزافاً
وكما اتفق ، فدخلت من النافذة إلى هذا البيت الحقير . ليس هذا موطنها
في تقدير الناس ولا دستور الجمال ولكنها في الواقع بنت « مخيمر أفندي »
المحضر بمحكمة الموسيقى والرجل الذي جاوز الأربعين ولا يزال منطلقاً على
سجيته في كل شيء . ينظر إلى الحياة من نافذة فتحها بيده وصنعها بنفسه
في جدارها فجعلها مناسبة لمزاجه وحده وموافقة لعينه . ماذا ينبغي

من الحياة ، وماذا بقي له في الدنيا من أمل ، إذا حانت الساعة التي يرقى فيها إلى « باشمخضر » .

كان رب أسرة بالقضاء والقدر ، فلم يشعر بنفسه إلا وهو في أحضان زوجته العزيزة كما يقول دائماً وفي كل صباح حين يجلس إلى إخوانه في المحكمة :

هكذا وجدت نفسي أيها الناس . . . وهكذا فرض على القدر وضعاً لا دخل لي فيه . مرتب صغير علاواته بنون وبنات ، وزوجة مشاكسة لا تفتر عن حسابي . تصور يا أخى أننى أشتهى السكره التافهة فلا أجد نفقاتها . . . مرة واحدة في الشهر أستطيع أن أفعل ما أشاء . ثم تأخذ بخناقى بعدها يد زوجتى . . . ويد الحاجة .

ويضحك « مخيمر » ثم يتمصص بقية القهوة في قعر قهوه ليستخلص شرابها من بين الرواسب ، ويمسح شاربا مهوشا في وجهه مكتنز تحت طربوش طويل . ثم يتحامل على نفسه قائماً في أسف من يندب سوء الحظ متخذاً سمته إلى أعماله اليومية .

وتعيش هذه الأسرة وهي لا تعرف كيف تعيش ! !

إنها تنقل خطاها المرتبكة في زحمة الطريق ، وتمشى مدفوعة بالمسرعين فيه ، كما يندفع الحصا الصغير في طريق السيول . إن رب الأسرة نفسه يؤكد أنه يسير « بالبركة » لأنه إذا سأل الأرقام فإنها لا تعطيه نتيجة معقولة ، ولأن شريكته في « البركة » تشرف على الميزانية بكل جوارحها فتحي مطلباً على حساب مطلب حتى ييسرها الله . لكن « مخيمر أفندى »

يقوم دائماً حجر عثرة في سبيل الإصلاح المنزلى الذى تبتغيه الزوجة كما يقوم الرجعيون فى المجتمع الطموح ، فكم نادت أم درية بوجوب إقلاعه عن كثير من العادات التى تكلفه من صحته المخصبة وجيبه المجدب شيئاً كثيراً ، ولكن صوته المبحوح لم يجبه إلا الصدى ، فلم يقلع عن سهراته التى يغتصبها من البيت فيحول فيها الرغيف أو أعز من الرغيف إلى شراب ردىء يعلأ به كأسه فى الحانة ، وهو يقهقه فى أحد أركانها المعتمة متبادلاً الأفاكية مع جيرانه من السكارى .

ثم يعود فى أخريات الليل منتشياً قليلاً ناسياً همومه التى يضيق بها صدره وتجادله زوجته فى مدى تحمله للهموم وتعدد له الأبواب التى كان من المستطاع جداً أن تدخل إليها دراهم أضعافها فى الشراب . ويطول الجدل أو يقصر وترتفع فيه الأصوات أو تنخفض ثم ينتهى كما ينتهى ويسمع المستيقظون من الأبناء وهم فى مضاجعهم كثيراً من المشاكل يتداولها الأبوان فتعالجها الأم بالحكمة ويعالجها الأب بالنكتة .

كانت الليلة من الليالى الباردة التى يهجع الناس فيها مبكرين حتى الموسرون منهم وأصحاب المعاطف الثقيلة لم يستهينوا بقر هذه الليلة . وتباعدت الفترة بين كل عابر وعابر حتى انقطعت الأصوات فى الحارة ، ولم يعد يصل إلى آذان المستيقظين من سكان البيت الكبير شىء من الأصوات إلا خفقة الريح بين فينة وفينة فصوص هرتين شريدتين ألقاها الشتاء إلى ركن أحد الأبواب فجعلتا تتناوشان فيه بمواء مقطع مسترخ ضعيف كأنما سيطر عليه النوم .

ولم يكن العشاء الذى تناولته درية دسما ولا شهيا ولا شيئا عسر الهضم
يجم فى المعدة فيحول بين آكله وبين الجوع . كان قطعة صغيرة من الجبن
اشتبكت حولها أيد كثيرة فضلت فى ظلال كأنها مشتبك الرماح . وأعقب
هذا العشاء واجب منزلى سهرت فيه الطالبة عدة ساعات أوت بعدها
إلى فراشها وهى تحس أن البرد قد استهلك كل ما فى جوفها من غذاء .
وأسمت أهدابها للنوم وقتا استيقظت بعده فلم تدر ما الذى أيقظها . لعل
حركة أمها فى الحجرة الأخرى وفى الردهة ، لأن شيئا من القلق يشوب
حركاتها مرجعه استبطاء عودة الوالد . أو لعل الفتاة قد قلقت من خفقة
الريح فى مصراع نافذة ضعيف أخذ يزقزق معها كما يزقزق الجندب فى
ظلام الريف .

ثم لعل سر قلقها أن المعدة قد فرغت تماما من شأن ما فيها فأخذت
تهتف هتافا أقلق هذه النائمة .

على أنها لم تكن مؤرقة وحدها فإن اثنين من اخوتها الراقدين على
حشية طرحت عند أقدام سريرها الصغير قد أخذتا يتنازعان الغطاء ويتهم
كل منهما أخاه بأنه قد عرض جسمه للبرد ولا تطول مدة النزاع فيجرب
خدر النوم مسرعا فى رءوس الصغار حتى تستأنف المهرتان شجارهما عند
مدخل الباب بشكل فاتر لا حدة فيه يختلط آخره ببدء صرصرة المصراع
ثم . . . ثم تتلاشى الأصوات ، وتستأنف الكائنات نومها تحت جنح
الظلام .

ويطرق الباب فلا يقول أحد فى الداخل : من ؟ لأن الطريقة كانت

وفة ، وتهزول الأم لتفتح وهي تتمم بما يجيش به صدرها منذ قليل .
نثار كلمات غير واضحة من فم الزوجين وها يدخلان إلى حجرتيهما فتصل
أذن بنتهما الكبرى . وتحس الفتاة أن سكرا خفيفا يأخذ برأس أبيها
، حدة كبرى يمور بها رأس أمها وأن هذا البيت سفينة تالفة ،
تتلفت في الظلام الذي لا يخفف من دكنته إلا شعاع مصباح صغير في
اللة ينفذ إليها من أعلى الباب ، تتلفت فتجد أطفالا متراحمين في مرقد
يق تحت غطاء خفيف قديم وقد أفسد النوم العميق نظام رقداتهم
نعرض أحدهم في ضجعته وتأخر الثاني فيها وتقدم الثالث على حين جعل
بع الغطاء فوق رأسه وترك جسمه عريانا . وتنزل درية من سريرها
رك لتنظم شعث هؤلاء الذين أنتجهم ذكاء خارق !

ثم تعود إلى مكانها فلا تكاد تستقر حتى ترتفع عقيرة الأب بالكلام .
كان ثرائرا بطبعه ، قوى الحنجرة كما فطره الله . وكانت الحجرتان
هذا المسكن متقابلتين يفصل بينهما ردهة مربعة انتثر فيها كثير من
المتاع ، وكان الليل ساكنا والصوت عاليا ووضع الحجرتين يسمح
ة أن تستبين كل ما يقال .

وبدأ الشريكان يستعرضان كثيرا من المواقف ، ولم تكن هناك مشكلة
دة بارزة متحيرة يتناولانها بالبحث والعلاج بل كان هناك عدة مشاكل
بهما كل واحدة إلى أختها . كانا كالتى تبكي أولادها الكثيرين فإن
واحدا صار من المحال أن تكف حتى تبكي الباقيين :

— لقد عييت بأمرك يا مخيمر ، وأمر أولادك كذلك . . .

— ها . . . ها . أولادى أنا وحدى ؟ ! لكأنا شركاء فى
جرعة تنصل منها الضعيف أمام القاضى !! تقولين أولادك . . . ها . . . ها . .
ثم ماذا عندك من الطعام ، لقد جوعنى السهر . . .
« ولعل درية ابتسمت ساخرة وهى فى مضجعها الذى لم يكن دافئاً
وقالت فى نفسها : قدى له يا أماء ما تبقى من أكل إخوتى وأخواتى . . .
من أولادك ! ! »

وتابع الأب كلامه :

لم أركب الترام فى هذه الليلة وأنا فى طريق العودة لأننى آثرت أن
أستدفئ بالمشى . . . ها . . . أو . . . أو . . . أو لأننى بخلت بالمليمات
من أجل أولادك . . .

وانفجر بالضحك كما ينفجر بغمّة صهريج زحمة البخار فكادت فتاته
الكبرى تنفجر بالبكاء فى سريرها المثلوج وكادت الأم تحطم ترائبها حين
دقت بيدها على صدرها عجباً وامتناناً . واسترد الأب أنفاسه فأخذ يقول:
أو لأننى أحببت أن أمتع أنفى بتلك الرائحة الذكية الشهية التى تملأ الآن
أما كن كثيرة فى كل حى .

وقد كان ذلك حقاً . كنا فى الأسبوع الأخير من رمضان وكانت
روائح الأمسيات فى كل ليلة من هذا الأسبوع مشحونة بنكهة عجيبة يعرفها
الأنف من أول لمسة ولا تفوح هذه الروائح بشكل جميل واضح إلا حيث
تفوح رائحة المال . على أن المحرومين كانوا يشمون بها بسخاء وبغير حساب
بالقرب من أبواب المخازن حيث يحمل الخدم مستطيلات من « الصاج »

ص فيها الكعك وتصاعدت روائحه في طبقات الجو يصبحها لغط خفيف .
كأنه أولى نغمات الموسيقى التي تبشر بالأعياد .

كانت الأم في هذه الليلة ضيقة الصدر لأن هواجس أبنائها جميعاً نزلت
لى نفسها هي لقرب حلول العيد . وبرقت دمعتان كبيرتان على خديها
، ضوء الصباح والأب يقول مايقول ، نخيل إليها أن الرجل يعث بدموعها
كما تعث الأنامل بحبات السبحة فبدأ صوتها العالى يترقرق فى حدة خارجا
ن الباب المفتوح متخذاً طريقه نحو آذان غير الناعمين فى الحجرة المقابلة ...
تلف الباب ... حيث الظلام الذى لا يخفف من حدته إلا الشعاع المنحوق ،
حيث سرير صغير غير دافىء ولا وثير ينام عليه اثنان ، وحشية مبسوطة
ام عليها من عرفت طريقة نومهم :

— والآن لم يبق أحد من أقربائنا الذين يعيشون بعيداً عنا . . . لقد
اتوا جميعاً . . . وكنا مضطرين إلى أن نعلن للجيران كل مرة وفاة
حدهم قبل العيد بشهر ، ونخيل إلى أن الحيلة فقدت الآن كثيراً من
يبتها فأصبحت قديمة بالية . . . إنكم تحملوننا أخطاءكم أيها الرجال . . .
— وأنتم تحملوننا أعباءكن .

فصرخت الأم قائلة :

— ألهجت عليك كثيراً ولكنك لم تستمع إلى ندائى . . . لكأننا
بىء أطفالنا فى العلب ، وقد اقترحت عليك أن نضع حدا لهذه الفوضى
ما فعل كثير من الناس . . . ولكن . . . آه . . .

وسمع غير الناعمين فى الحجرة المقابلة صوت الأب الساخر وهو يقول :

خليلها على الله !! ثم يرسل قهقهة متدفقة لا يقطع صداها عن السامعين
إلا خفقة شديدة لمصراع الباب وهو يقفل . ثم . . . ثم تلاشت الأصوات
واستأنفت الكائنات نومها تحت جناح الظلام .

إلا درية ، فإنها لم تكن نائمة !!

كانت جاعلة غطاءها فوق وجهها لتساعدها حرارة أنفاسها على أن
تدفا . . .

ولعلها كانت لا تدري شيئا عن السبب الذي جعلها تذكر صديقتها
« نادية » وكانت جملة من الأفكار تلتقي في رأسها فتألف وتختلف . . .
كانت أخلاطا غير منتظمة لكن دواعي شق ولدت هذه الأخلاط :

نادية ، الزميلة الصديقة ، بنت الأسرة المتوسطة والتي ليست من
حضيض الناس كأسرة أبيها .

وانتقل خيالها بها فحملها إلى عرض الطريق وهي ذاهبة أو راجعة
من المدرسة ، فرأت كأن أحد الجالسين في الحارة يتأرجح بكرسيه حتى
يسند ظهره إلى الحائط دون أن ينقل الكرسي ثم حدد إليها ناظريه وهز
رأسه وهو زام شففيه ثم قال في همس مسحور : يا خسارة !!

على أنها ليست أجمل من « نادية » لكن جمالها من نوع وجمال
صديقتها من نوع آخر . . . لكل منهما مذاق وطعم خاص بصاحبته كما
تختلف طعوم الفواكه أو روائح الأزهار .

كانت نادية في يوم من الأيام سائرة معها في طريق العودة بعد
خروجهما من المدرسة ، وكانت كتفها ملاصقة لكتفها وخصل شعرها

ود المغدودن تكاد تلمس وجه درية من كثرة ميلها عليها وهي تتحدث
ت خفيض وتقول : إن أمها لم تعد تلد ، ليس هنالك أطفال جدد
بضعة أعوام . . . بعد عدة زيارات لطبيب ، ورقدة في المستشفى
تغرق سبعة أيام . جو بيتنا هادئ جدا يا درية لذلك ترينى أؤدى
لى بسهولة فليس هناك إلا أنا وأخى . . .

ولم تعد درية تطيق بقاء الغطاء على وجهها لأن أنفاسها بدأت تلمح
ها فظمئت إلى الهواء البارد ، وجاس ناظراها خلال الحجرة فرأيا
شئ فيها بوضوح ، رأت جملة من الأطفال أنتجوهم بلا حساب ،
هم مزاح خالص لم يكن فيه شئ من الجد ، فلو كانوا لعبا أو أفراح
ج لدخل طلب السوق فى حساب المنتجين !

* * *

ولم أعينها فى الظلام فم « نادية » وهى تبسم ، كانت كأنها تهز
ها وتقول لها . إن الطب يا صديقتى قد وضع حدا لهذه المعركة الصاخبة
بنة . . .

إن الأجساد التى تزدحم بها هذه الحجرة مما انجلت عنه هذه المعركة ...
، لا أشلاء !

ويبتلع الظلام شبح الصديقة ثم يولد فيه شبح جديد يأخذ فى الظهور
فشيئا حتى تبين فيه ملامح الأم ويخيل إلى الراقدة أن فى عنق الشبح
كبرى تطل منها رءوس الأطفال فى وضع مستدير مع حافة السلة وأن
تمشى بها منحنية مثقلة الخطأ مهورة الأنفاس وخداها مبللان بالدمع .

وكان الأب من ورائها يدفعها بجمع يده في ظهرها ليحثها على السير
وهو يضحك !!

فتسارع درية وتمد يدها لتسحب غطاءها على وجهها وهي تهمس
ويلي . . . كأنني مجنونة !!

كان جو الشقة التي تسكنها الأسرة جوا رائعا في هذه الليلة ، كانت به شئء بحقل من « الصبار » لمع ماء الرى بين شجيرات المحرومة . هناك ضحك وابتسام وبشر وفكاهة . ونكهة سمن وبصل وصوت نعق وأطباق ، وأغطية أواني النحاس لا تفتر عن الرنين كأنها تتحرك ، تلقاء نفسها ولم يكن يعلو عليها إلا صوت مخيمر أفندى وهو يقهقه يأمر أو ينهى . أو يذيع على أبنائه وبناته حديثا تختلط فيه نبرات كلامه وت مضغه للطعام . . وهناك صوت الأم يترقرق بين آونة وأخرى نة تعبها أو بداية مس المرض لجسمها المنهوك أو راجية أن يخفف الجمع د من هذا اللغط . . ثم صحاف ترفع وصحاف توضع . ولم تكن الأيدي مابكة في هذه الليلة سريعة الحركة لأن في الطعام شيئا من الدسم أدفاً

البطون وخدر المعدات ولم تعد عين من عيون الأطفال تتابع حركات الأيدي وهي ترتفع في طريقها إلى الأفواه .

هنالك طمأنينة وسلام ووجبة هادئة لم يشبها نزاحم . ولم يسبقها تأهب . حتى الأب لم يهتم فيها أحد بنيه بأن لقمته كبيرة إلى حد ينافي الأدب أو بأنه لا يمهل فاه حتى يفرغ مما فيه . أما الأم فلم تكن بحاجة إلى أن تتشابع ولا أن تتمارض .

كان مخيمر أفندي يقص على أسرته شيئاً مما صادفه في يومه الفاتئ ولم يكن مهتماً كثيراً بأن يحسن أداء ما يلقيه لأنه مشغول بالمهمة الكبرى فلا يكاد يرفع عينيه عن الطعام . اللهم إلا إذا شاء إلقاء أمر ، ثم يعود إلى ما كان فيه من قبل . وكانت الفتاة الكبرى تتأمل وجه أبيها فيخيل إليها أنه مسحور رجل يتكلم بسرعة وانطلاق ولا تنطق ملامحه بشيء مما يقول . لم يكن وجه رجل يتحدث . وإنما كان شهية مفتوحة . وخدين يضطربان باهتزاز الفك وانتظام يذكرها بحركة الآلات .

وكان بعض أبنائه يضحك وبعضهم يتأمل . أما الفتاة فقد كانت شاردة اللب وكان الصغار الذين لم يتجاوز أ كبرهم السادسة من عمره مستغرقين في ضحك اغرورقت له عيونهم واتسعت بسببه ابتسامة أبيهم الذي سره أن سر جميع الذين يستمعون .

ثم تاب الأب إلى رشده بعد أن فرغ من طعامه وإن لم يقم من مكانه وبدأ وجهه يشارك يده ولسانه فيما يقول . وكانت حلقة الصبيان من بنين وبنات لا تزال ملتفة حول الصينية يستمعون إلى أبيهم :

الحمد لله . . . إنها نعمة . . . نعمه كبرى (ثم نظر إلى يده التي لا يزال
با يبرق من الأدام ومسح شاربه فسقطت من بين شعيراته حبة الأرز
كانت عالقة به والتي كان الأطفال يتضحكون منها) واستطرد بلهجة
نة فيها شيء من الأسف :

وهكذا نحن دائما توقفنا مهنتنا هذه على مآسى الناس من المحال أبد
أن يدخل المحضرون بيتا لم تدخله الديون . حتى ييوتنا كثيراً
طوى الدين فيدخلها في أعقابنا . فقالت كبرى بناته : كالأطباء
نلون إلا حيث تدخل الأمراض . واتصلت عبارتها هذه بآخر بسمه
بها شيء من الفخر والاستحياء على حين انبرى أحد إخوتها ممن جاوزوا
رة فعلق على الموقف بلهجة تخالطها روائح الشباب الباكر : وكاللعادين
يمشون في خطوات عزرائيل . . .

صرخ الأب في وجهه واستعازت الأم من الشيطان وحمد مخيمر أنفدى
سه برهة لا يقول ولا يتحرك بل جعل ينقل ناظريه بين أولاده وهو
رأسه يبطء حتى رسم دائرة كاملة . ثم ضرب كففا على كف وضحك :

ما والله لو حدث هذا فإن المأساة الحقيقية ستكون هنا . . . هنا .
و . . . وتنفس طويلا وأطرق ينظر إلى جملة من الملاحق ثرت
على صفحة الصينية كان عددها تسعا كعدد الأيدي وكانت ألوانا
لا لفتت الأم بينها تلفيقا . وعجبت أم درية مما سمعت وصوبت الفتاة
ى أهدابها السود وهي تدمن النظر جيدا إلى أبيها .

العيون الصغار فقد كانت تدور في محاجرها وتلقى بالنظرات

في كل ناحية وتنطق بالتساؤل في كل صوب . ثم بدد هذا السكون صوت
الأم وهي تتساءل :

— ماذا أصابك يا مخيمر أفندى .

— نوبة نوبة من نوبات العقل كثيرا ما تصيب
المجانين أمثالنا من الآباء تصورت في هذه اللحظة شيئا غريبا . .
تصورت أن يدا قوية خطفتني من بين هؤلاء وأنهم أخذوا يضربون في
طرقات الحياة يلتمسون القليل الذي كنت أطلبه لهم . وأن البنين . . .
أريد أن أقول : وأن البنات

فوضعت الأم حدا لهذيانه المؤذى بأن بسطت كفها على فمه وهي
تهتف في دعر وتشاؤم وتأنيب : لعلك بحاجة إلى كأس . . .
وسمعت درية مادار بين أبويها وكان معظم الباقين من الأبناء يتراحمون
على الصنبور في المطبخ في جلبة وضوء ويقذف بعضهم بعضا برغوة
الصابون . على أن صدى هذا الحديث لم يكن ليزيل خيالها بسهولة .
كانت تسترجعه في أمسياتها كلما هدا من حولها المكان . ويعاودها في
خلواتها دون أن تناديه . كان هماراسبا في النفس يطفو على السطح
كلما منحت فرصة وكانت هذه الفتاة التي تعتبر نفسها من المظلومات تنظر
إلى نطاق أبيها على ضوء ما ترى حولها وما تسمع فتلفيه ضيقا عطنا كريها
غير صالح لأن يتنفس فيه .

ما هذا الزحام الذي تراه في البيت ؟ وهل كان ضروريا ؟ ؟ إن
قطب الرجا الذي تدور حوله الأسرة واه ضعيف لا يحتمل هذا الزحام ؟

كل سندهم في الحياة رجل ينتابه « العقل » في بعض أوقاته . أشبه شيء .
بقائد الفرقة الموسيقية الذي لا يعرف من معنى القيادة إلا أن يمسك العصا
فحسب ، فتتصاعد النغمات فوضى غير منسجمة ، ليس فيها إلا التنافر والصراخ .
ثم فرضت درية أن قائد هذه الفرقة ألقى العصا فجأة ثم غاب كما تصور
هو ذات ليلة ، فما الذي يحدث ؟ ؟

سيكف العازفون وتخرس الآلات وتدور عيون الكبار والصغار تفتش
من الذي سيمسك العصا بعد هذا القائد . فإذا به أرملة ومن وراء ظهرها
نذراء عجيبة ! ! . . .

وتتنفس فيخيل إليها أن الهواء كثيف ثقيل ليس من الخفة ولا السلاسة
حيث ينفذ إلى الصدر بسهولة . ويشتد عليها الموقف حين يقذف بها
نيالها من جديد إلى حيث تقف الفرقة التي يرعاها أبوها ، وتنظر ، فإذا
كل أفرادها في ملابس سوداء لأن القائد الذي تخلى عنهم كان عزيزا
لرغم من فشله ، محبوبا على الرغم من سوء تصرفه يخدعون به
لحوادث يبعث الطمأنينة في نفوس الناظرين سمته الضخم وهيكله
مظيم . أشبه بالدبابة التي صنعها بعض المحاربين من الخشب فخدعوا بها
مدو فترة من الزمن . ثم لا يطول موقفها أمام إخوتها المحزونين حتى
ي كأن يدا تجذبها من خلفها وتنظر فإذا به شريك حياتها المنشود
بيريده الأخرى نحو الطريق ولكنها لا تتحرك . وتدفعه عن
سها برفق ! !

وكان في طبيعة الأم شيء من الحكمة وإن كانت من الجاهلات

كانت تختلى بفتاتها بعض أوقات خصوصا كلما ضاقت ذات اليد أو بدا
على أفق الزمان يوم كثير المطالب فتحدث إليها حديثا مزدوج الفائدة .
فيه ترفيه ونصيحة كأن تقول :

كنت أتمنى لو أننى بكرت بـغلام . كان من الجائز جدا أن يكون
موفقا صالحا لأن يدعم بيت أبيه . . .

وتسرع الأم فتتمحو العقدة التى بين حاجبيها بابتسامة مصنوعة يشرق بها
وجهها حتى تشرق نفس بنتها كذلك :

ولكن . . . أليس من الجائز جدا أن تمد فتاة يد المعونة إلى إخوتها
الضعاف ؟ . . . إن البيوت المزحومة كثيرا ما تنسى متاعها القديمة
إذا كتب لبعض أفرادها التوفيق . . .

أبوك رجل طيب القلب . ألسنت توافقينى على هذا يا بنية ؟ ؟
وقد تكون السيدة وقتاتها فى مثل هذه اللحظة مكبتين على الغسيل
تعركان بين أيديهما أخلاطا من ملابس متلاحقة الطول فتتظر ابتها إلى
الماء الكدر ولا تلبث حتى تهمس : وهل فى ذلك شك يا أماء ؟ ! وتستطرد
السيدة : أليس من الجائز أن نكون من الأغنياء يادرية فى يوم من
الأيام . . . غيرى الماء . صبى أمامنا قليلا من الماء الساخن . لا تضغطى
الصابون هكذا حتى لا يتآكل . . . ولا تعركى القميص هكذا حتى لا يتمزق
نعم . نعم . هنالك ناس يدخلون الحياة من باب الفقر ثم يخرجون منها
من باب الغنى . ويقع العكس . . . آه . . . هو كذلك ، وأظننا من الأولين .
شئ واحد أرجوه وأبتهل به إلى الله فى صلواتى . . . أن أعيش وألا يتغلب

المرض على جسمى المرهق فأشرف على تهيئة بيتك . أبوك رجل طيب .
أعانه الله . ولكن حظه فى الحياة هكذا . وربما كان حظه فى أبنائه خيراً
من حظه الشخصى .
— جاز .

وتكفان عن الكلام وتأخذ كل واحدة منهما فى النظر إلى الفقايع
التي تولد وتموت تباعاً وبلا انقطاع على صفحة ماء الغسيل فى الطشت .
وتستمع إلى نغمته الرتيبة التي تنشأ من احتكاكه بالبلاط من تحته .
ثم تستأنف العذراء الحديث بعد أن يطول إنصاتهما إلى الموسيقى النحاسية
التي تصاحب خضخضة الماء .

— لا علينا يا أمه . . . سأتم دراستى هذا العام ، وسأسرع إلى
معاونة أبى . . . أما زواجى فهو شىء لا أفكر فيه .

وساد الصمت وعادت الموسيقى المعهودة تنصب فى الأسماع ، ورمت
الأم طرفها برفق حتى وقع على وجه فتاتها فإذا بالجد والعزم يعلآن صفحته
المستطيلة وإذا عقدة جميلة صغيرة قد ولدت فى أعلى الأنف بين الحاجبين
كأنها سلاح لطيف ترفعه العذراء فى وجه الزمن .

وليس من شك مطلقاً فى أن الأم دعت بقلبها وشكرت بضميرها فضل
لله . ثم استمعت إلى نفسها وهى تقول لها :

— جاز . . . جاز جداً . . . ربما كانت خيراً من قى محنت

* * *

كانت روائح الربيع الباكورة تسرى في سمات القاهرة بعد كل غروب
فتوسوس بها الأغصان وموسسة خافتة كما تتحرك أهداب السكرى. وشرع
عطر خفيف يفوح في الجو لا تشمه إلا أنوف الشعراء . وذوائب أشجار
الكافور الباسقة التي غرست في فناء إحدى المدارس بدت لعين الناظر
من شباك « نادية » وهي تلوح للربيع المقبل بأفنانها الطرية . كان كل
شيء في المساء سحرا وشعرا وكل كائن في الوجود ينبض بالحياة تحت
إحساس نادية . كانت في حجرة مكتبها حيث تقرأ أو تطرز وقد تحصلت
قريبا من ملابس الشتاء ، فلم تعد تلقى على كتفها شالها « الشبيكة »
ولم يعد صدرها الناهد يبرز به إلى الأمام . بل تفتحت مع الربيع شأن
الجميلات . من بنات المدارس فارتدت ثوبا ناصعا تنفتح بذيقتة عن أعلى
واستقبلت النافذة فنفذ بصرها إلى ذوائب الشجر تحت ظل هذا المساء
الخفيف محترقا فضاء السطوح المنخفضة بالنسبة إلى منزلها . ثم قالت :

— وبانقضاء هذا العام يادرية منفرد من شأن المدارس . فلا كتب
ولا كراسات ولا تطريز ولكن سنسلك طريقا جديدا جميلا بغير شك...
طريق الأهميات يا صديقتي . حيث القراءة للأزواج والتطريز للأبناء... و...
— والكتابة لمستشفى المجاذيب .

وأطرقت درية وتشاغلت بطرز بين يديها . أما نادية فإنها أخذت
تجول بناظريها في كل صوب والدهشة تملأ جوارحها .
وانقضت فترة ليس فيها إلا الدهول والإطراق لأن درية تغيرت فجأة
في نظر صديقتها حتى ظنتها أنها أقفلت قلبها دون كل إنسان .

لكنها عادت فسألتها عن « راضى » عن حبيبها هذا الذى كانت تريد منذ زمن قصير أن تجعل الأرض قسمة بينه وبينها . فلما ألحت عليها لتعرف سر هذا التغير أجابتها بهدوء وذلة وإنكسار ، فبدأت تقص عليها قصتها : كانت علاقتها بهذا الفتى ترجع إلى خمس سنوات مضت . وكانت أولى التجارب التى مر بها قلبها الراكد . وعمرت عليها فترة طويلة من شبابها المغرور وهى واثقة أن جمالها عصا سحرية تستطيع أن تلقف بها من تشاء من الرجال حتى ولو كانت بنت مخيمر افندى ، ولعله كان يبدو لها فى فترات أحلامها المستيقظة أن الرجال إنما يتزوجون الفتيات دون أن يعنى الكثير منهم بل والكثير الغالب بمكانة آبائهن أو قيمة أسرهن . وأخذت أحلامها هذه تغيب فى الضباب رويدا رويدا على نعمة ما كانت تسمعه من بعض الجالسين على المقهى أو فى عرض الطريق ، حين كان يتراجع أحدهم بكرميه إلى الوراء وهو يقول : يا خسارة . . . وعلى نعمة ما كانت تسمعه من أبيها الذى كان يفرض فى كثير من المواقف أنه مات . وعلى نعمة ما كانت تسمعه من أمها حين تختلى ببنتها فتسكب فى نفسها شيئا من الغيرة على الأخوات والإخوة وقدرًا من الشفقة بأبيها الذى فرضت عليه الحياة عيشة الضيق ، وكثيراً من الأمل فى حياة أرغد وعيش أخصب وأوسع ولو على يدى أنثى ؟ ؟

على أن هواتف الحب لم تغفل قلبها الغض فى شبابها الباكر فعرض لها فى الطريق « راضى » وفرض على نفسه مهمة شاقة لذيذة هى أن يترقبها عند باب مدرستها عصر كل يوم فيقف متلفتاً مندهولاً حتى يظهر

قوامها النحيف الرشيق من بين قدود أترابها ثم يمشى وراءها مباعداً
أو مقارباً ، يغمر ملاحه الهادئة خشوع وأمل ، ولم يحدث له مرة أنه
ارتكب إزاءها حماقة أو حاول أن يتحدث إليها بعد أن تختلف الطريق
بزميلاتها اللأئي يسرن معها كأن خمر شبابه من النوع الذي يشتد
أخذه حتى يمسك شاربها عن الكلام ، أو كأنه اعتقد أن حديث عينيه
فصيح صريح وكل حديث بعده فضول . ويمشى راضى وراءها في الطريق
على هذه الحال حتى إذا ما بدت لعينيه البوابة المعقودة عند مدخل الشارع
أحس كأن كل حجر من أحجارها يندره بالويل إن هو لم يرجع فيدور
في الميدان الصغير هنالك متأملاً سبيله بين عشرات من عربات صغيرة
تحمل الخضر والفاكهة وتنتشر فوضى في رقعة الميدان . . . ويمشى خطوة
ويتلفت ثم يمشى خطوات ويدور على عقبيه ليلقي إليها نظرة فيراها منطلقة
كالسهم لا تأبه لشيء مما وراءها .

وتجربى الحال على هذا المنوال بضعة شهور لا تتغير ، ولا يتخلف
الشباب عن حراستها في الطريق إلا أياماً معدودة كانت درية تحس فيها أن
شيئاً من مقومات الطريق غائب مفقود أو كأنها تسير وحدها يغمرها
كثير من الوحشة . ثم يؤذن العام المدرسى بقرب النهاية وتؤكد ذلك
أنفاس المقطم التي أخذت تسرى في جو القاهرة فيسرى معها الحر والغبار ،
ويشعر هذان الروحان اللذان لم يكتب لصاحبيهما أن يتحدثا بأن جفوة من
الزمن مستفتح بينهما وأنه من الجائز أن ينبعث منها حنين ينقلب إلى شوق
ثم يتحول الشوق إلى خواطر معربة تعيث فساداً في خلايا القلوب .

وليس الخوف من النهاية يمنع أن تجيء النهاية لأن « راضى » قد
ألغى نفسه واقفاً على الطوار تجاه مدرستها للمرة الأخيرة في هذا العام
يراقب ذات القوام الناحل والسمت الجميل وهى تنفصل عن أنرابها
المتراحات عند الباب لتأخذ طريقها إلى البيت . ثم ينتهى الصيف بحره
وأحزانه وأفكاره ، ينتهى بالنسبة إلى الطلبة وخدمهم لأن افتتاح الدراسة
سيكون فى اليوم التالى . ويستلقى الفتى فى سريره ولا ينام طول الليل ،
اللهم إلا فى الأخريات حين تسرى أنسام الفجر فتضغط بأناملها الندية على
أجفان المورقين . . . كان يفكر فيما عسى أن يتنفس عنه الصباح ، إنه
سيرها ، فماذا سيقولان ؟ سيقول هو لها كلاماً كثيراً بقى أربعة شهور
يؤلف بين أشداته وستقول له هى فى آخر الأمر كلمة ميسورة إن لم يتحرك
قلبها لهذه الآلام . ويتكرر الموقف وتتفرق الأتراب عنها فتأخذ طريقها
وحدها إلى البيت ، وتخف فى الطريق قدما خلفها يتعثر صاحبهما
فى أذيال سرواله حتى إذا أدركها بدأها بقوله — سيدتى ؟ . . .
ولا يتكلم ، لكن درية لا تلبث أن تبسم ويشيع فى وجهها نور رضا
وسلام ينفذ شعاعه إلى قلب فى ضباب الحيرة يتغذى بالأحلام وحدها . بيد
أن الفتى لا يخرج عن صمته وتريد هى أن تعاونه فتهد له يد المساعدة
حين تقول — سيدى . . . نعم يا سيدى ، هل تريد أن أتحدث بالنيابة
عنك ؟ ؟

— مطلقاً . . . لكنه حديث طويل . . .

— أفهم ما تعنى . (فقال بلهفة فيها توسل وطمأ) .

— هل نحن متفقان ؟ ؟

— ربما ؟ ؟

— إذن وداعا .

لم يستطع أحدهما أن يعلل التحول الذي طرأ عليهما في أصيل ذلك اليوم بعد لقائهما بنصف ساعة . كان كل منهما في وهلة اللقاء الأولى لا يكاد يحس إلا بالناس حتى لكان عباد الله قد اجتمعوا في الحديقة لأنهم يتآمرون عليهم . وما استهل حبهما وتنفس أنسام الحياة ومضى على ميلاده وقت غير طويل حتى اختفت الناس من نطاق إحساسهما ، فلم يعودا يشعران إلا بشخصيهما ولا يريان إلا ما يتسم من أجلهما . وقد كان معظم الكائنات يتسم .

جلسا أول ما التقيا في أحد « الأكشاك » النباتية التي كأن البستانيين قد وشجوا بين أغصانها من أجل كل عاشق ، وفي ظل هذه الحوائط الشفافة الخضراء انقضت فترة التعلم التي تكون عادة في لقاء كل حبين ، ولعلمهما أحسا بعد ذلك أنهما أكبر من أن يحدهما مكان فخرجا يلتعسان الهواء ويطلبان الحلاء ، فاضجعا على العشب برهة أخرى ، ثم خيل إليهما أن الأجساد التي تسمها عصا الحب يجب ألا تسكن فتركا الحديقة لنزلائها وأخذوا يضربان في ظلال الجزيرة . . .

« ثم اشتد بي الحنين يا صديقتي وأرقنتي الوسوس حين عرفت أنك مريضة . . كنت على مقربة منك عدة ليال أراقب وأدعو وأبتهل ، وأتمنى

أن لو قسمت المساءات بين الناس لأحمل عنك معظم ما تحمّلين . ثم عرفت نوع مرضك حين رأيت رباطا من الشاش يدور حول وجهك ليحمل اللوزتين . ورأيت رجلا عظيم الجسم قوى الصوت عرفت بعد أنه أبوك ، أما السيدة التي عرفت فيها أمك فقد كانت حنانا دائما يربط جنب الفراش . ولست أنسى ما حميت تلك الشجاعة التي هبطت على فجأة حين تقدمت إلى خادمة مدرسة البنات التي تواجه مسكنكم رأيت فيها امرأة طيبة فياضة العطف بعد أن حملت إليها بعضا من الهدايا ، وقد رثت لحالي وودت من كل قلبها أن لو استطاعت أن تسعد قلبين ، لقد تزوجت على حب في زمانها الذي ولى ، ولو أن الحب كان في ذلك الزمن شيئا نادر الوجود كان سلعة محظورة ، تتداولها القلوب في الخفاء ، كما تقول ! !

وتهدأ الحركة قليلا فأكون في نافذة الفصل الذي يواجه غرفتك أراقب من وراء « الشيش » نافذتك المفتوحة وأحول النفس في كل ليلة وأنا في مجئى هذا إلى مسرح تتعاقب عليه الإحساسات العنيفة — خيل إلى في كثير من المواقف أن أهتف باسمك لتسمعى فتطلى فتعلمى أى قلب هذا الذى أحبك ، حتى إذا ما انقضت فترة الآلام ومرت نوبة الحمى ، وبدأت تدخلين فى الدور الذى يرقد المرضى فيه ليستردوا قواهم كنت أحس كأننى أحد هؤلاء المرضى كان الخدر الذى فى جسدك يسرى سريعا إلى بعد أن أجلس إلى النافذة بخمس دقائق وقد حدث مرة أن غلبنى النعاس فلم أستيقظ إلا على يد السيدة وهى تربت كتفى برفق . ثم وصلا بجهما إلى النهاية التى يصل إليها معظم الأحياء ، فاتفقا على

الزواج وجعلا يرسمان في كل لقاء كيف أن العش سيحرسه الرجل وتضيئه المرأة . وجاوزا في إحدى الأمسيات الجميلة حد الأمانى إلى حيث جعل يرسمان ملامح الأولاد فقال راضى — إن من الخير أن يحىء الذكور فى ملامحه وأن يحىء الإناث فى ملامحها ، أعنى أنهما اقتسما المسألة بالنصف حسما لحبل الجدال الذى طال ! ! ثم تسربت درية شيئا فشيئا إلى لباب حياة صديقها فأخذت توحى إليه بغموض أنه لا داعى لأن يأخذ فى الدراسة العليا بعد دراسته الثانوية . . الوظيفة خير ، والتعجيل بالزواج أحسن ما فى الخير ، لماذا ؟ ؟

لأن قلبها يحدثها بأحاديث غريبة . . . إنها ترى على أفق وجودها أشباحا تتحرك وليست تدري ماذا وراء هذه الأشباح ، ولكنها تخاف ! ! ويجب راضى بأن السعادة تحمل معها دائما علامة نقصها فالخوف من تخلف الأمانى هو النقص الذى تحمله فى طياتها أمانينا الدنيوية الزائلة ! ! ويحىء فى مثل هذه اللحظات دور القبله ، فتلتقى الشفاه فى منتصف الطريق بين الحبيبين ، فينسج الأحياب بها حول نفسيهما طمأنينة صناعية ينسيان بها — ولو إلى لحظة — ضعفهما أمام سطوة الأقدار .

وتمر الأيام وتنطفئ فى نفسها هذه الحدة حين ترى موقف أسرتها وتكف درية عن التلويح بمخاوفها لراضى ، وتدخل علاقتهما فى دور من الاستجمام ينطبع الفقى معه بطابع الترقب وتنطبع هى فيه بطابع الحيرة التى بدت على ملامحها ليلة كانت نادية تبثها الشوق إلى طريق الأمومة .

بدأت حياة مخيمر أفندى تدخل فى نطاق من الخصب غير طيعى ولا معقول . وبدأ الرجل يدعى أنه مرهق مكدود ، وأن أعباء وظيفته ثقيلة فلا بد لمثله من الغذاء والترفيه .

وألقت الزوجة سلاحها بعد الصراع الطويل فى سبيل إصلاح البيت فتركت السفينة التالفة تمشى كما تمشى ، وبات مخيمر أفندى لا يعود إلى المنزل إلا سكران ، اللهم إلا فى قليل من الليالى حيث تستطيع الزوجة أن تعوقه عن الخروج بالشجار أو بالحيلة .

بيد أن بقية أفراد الأسرة بعد درية وأمها كانوا يحسون راحة ورغدا ويعجبون مما يرونه من غضب الأم : طعام سخى وملابس جديدة فى أوقات غير متباعدة ، والدنيا بخير ، فما بالها متضايقة ؟ !

كان الغلمان يتساءلون فيما بينهم ثم يتهامسون وقد تقاربت وجوههم
وامتزجت أنفاسهم : وما الذى يضير هذه الأم من أن يسكر الوالد !؟ كأنهم
كانوا يتصورون أن أمور الحياة تجري على ما ينبغي مادام فى بيتهم طعام كثير .
وأصبح مخيم أفندى بعد مضى شهرين على هذه الحال شخصية
معروفة لدى رواد حانة « حسن الختام » . . . هكذا كان يسميها أولاد
البلد ولم يستطع أحد تعليل هذه التسمية إلا اثنان أولهما صاحب الحانة الذى
قال : إن الله واسع المغفرة ، وسيغفر الذنوب جميعا لرواد هذه الحانة . .
ثم هز كتفه وأردف : والدليل على ذلك أننى لم أطلق عليها هذا الاسم
وإنما أطلقه عليها الناس . وهذا تعليل شاعرى فيه كثير من رائحة
« الكحول » أما التعليل الذى يمكن أن يكون واقعيا ، فهو أن رواد
الحانة كان معظمهم من المتقدمين فى السن . . من صغار الموظفين وأصحاب
المهن التى لا تتمتع برواج ولا يحظى أصحابها بالرخاء .

أصبح مخيم أفندى شخصية معروفة وأصبح يعقد المراهقات فى الشراب
مع كثير من أصدقائه الذين لا يفتأون يفتخرون بأنهم عاصروا الحمر منذ
انتشارها ، حتى كأنهم عصروها . . . ثم يقول الواحد منهم بلسان عائر
متلثم : أما أنت يا صديقى . . . فشريب جديد . . أنا أستطيع أن أصف
لك . . . موقع كل حانة فى القاهرة منذ خمسين عاما . . وأن أذكر
لك . . . أسماء عمالها ، وتنقلاتهم . . . وأخبارهم . . . وأسماء أبنائهم
إذا أحببت . ويختم عبارته بضحكة يقطعها السعال ثم يزدرد شمالة فى كأسه
وهو لا يشعر بأن أحد جيرانه قد مزجها بحراقة السيجارة .

وكثيرا ما كان مخيمر أفندي يخرج من هذه المراهنات ظافرا بعض
شيء . . . كان يفقد معظم وعيه وإن لم تبلغ به الحال مرة أنه عجز عن
سير . وكان في هذه الليلة قادرا على المشي عاجزا عن أن يتعرف طريقه .
انت الشوارع متشابهة في عينيهِ وأضواء المصابيح كلها تتراقص ، وكان
محك منها ويظن أنها تتغامز ساخرة منه ، ثم ينقل خطاه وكأنه يخلعها ،
يضرب في تيه من الأحياء معلقا على كل ما يراه بأقوال لا تزيد على أن
كون إشاعات لخم رديئة أفرط في شرابها ، كان يقول : ادعوا معي
ول العمر لمدير مصلحة المساحة . . الرجل الطيب . . أبو المساكين .
يهنئ بعبارات أخرى ويعود فيقول : ادعوا معي بطول العمر لمدير
لمحة المساحة ، ويقف برهة إلى جانب أحد المصابيح في الشارع حيث
ند ظهره إلى العمود ويرفع وجهه ويبسط كفيه ليهمهم بدعاء طريف .
وبلغ مخيمر أفندي باب بيته في هذه الليلة بعد لف ودوران ثم طرق
ب بأنامل مرتعشة جعلت زوجته تسأل قائلة : من ، لأن الطريقة لم تكن
يفة ، ولم يلبث حتى أجابها بصوته الجافى ولسانه العاثر : أنا . . أنا
ر المساحة . . . افتحى يا سيدي .

كان هنالك في القرية حيث مسقط رأس هذا الرجل ميراث ضئيل
يجاوز نصف فدان ، وكان عم مخيمر يذكره دائما في الملمات ويتجه
بقلبه وعواطفه في كل أزمة ، وكان هذا الميراث بالنسبة لهم جميعا أشبه
بقطعة الحلوى التي تتجرع المر ونحن نأظرون إليها ، وكم من مرة نار
أجلها الشجار بين الزوجين ، فيقترح الرجل على امرأته أن يبيعها

مائة مرة في كل عام وتصدده هي بضجيج ولهفة وصراخ قائلة له : دعها
أيها الرجل فربما حكم الزمان .

ولم يكن هذا المنطق ليقنع زقا عظيما يريد أن يمتلىء خيرا وهيكل
ضخما يريد أن يحتزن طعاما ، فتحثال عليه برقتها النسوية قائلة له : إن لها
وله خمس بنات وربما تقدم زوج لإحداهن ، فيمسك عم مخيمر نفسه
على غيظ شديد ، ويدعو الله بينه وبين نفسه أن تقع المعجزة .

ووقعت المعجزة ذات يوم من الأيام ، وانتزعت ملكية نصف الفدان
لمرفق من المرافق العامة ، فابتلعت جوف مصرف يتجمع فيه ماء الري .
ولم تعد هذه البقعة المخصصة تنبت شيئا إلا الحشائش البرية ، وأعواد الغاب
التي تنمو عادة حول كل ماء ، ثم شيئا آخر بالنسبة إلى مالكها ، هو خر
دائمة وطعام كثير . ومنذ ذلك التاريخ بدأ مخيمر أفندي يدعو لمدير
مصلحة المساحة كلما أحس الذشوة ونسى الهموم .

وانقضى العام المدرسي ونجحت الفتاتان : درية ونادية ، وخلت كل
بهنهما إلى نفسها لتستدعى آمالها ، فرأتها درية في كيس ضخمة مفعم بالمال
ورأتها صديقتها في وجه صبوح يبسم لها ، ويكافح من أجلها ، وهي
مسترخية على أحد المقاعد المستطيلة في بيته تعمل صدرية من الصوف
بإبرتها الطويلتين لوليد وميم يجرى تحت عينها ! !

أما مخيمر أفندي فقد حلا له الشراب فصرى به وبرع فيه وأخذ يجرع
منه الكثير لأنه مسرور سعيد بأول توفيق أصابه في أحد أبنائه ، وقد كان

من قبل يجرع منه الكثير لأنه مرهق مكدود يحتاج إلى الغذاء والترفيه .
والتقت الصديقتان اللتان فرغتتا من الدراسة ذات مساء في زفاف
إحدى الصديقات . وكان المساء جميلا نديا أفعم جوه بالعطير والأنعام
وأشرقت فيه وجوه العذارى كأنهن قد أبرزن حسنا كان مخبوءا ،
وتراقصت الآمال على وجه كل فتى وفتاة ومالت كل صديقة على صديقتها التمس
في أذنها بأمل حلو أو لتعلق على موقف طارئ . وكانت نادية تنظر إلى
إكليل الفل وهو يرف على رأس العروس فيخيل إليها أنه أخطأها وأنها
هي التي كانت مقصودة به ، وأن يدا تنظمه من أجلها ليكون على رأسها
بعد وقت غير طويل .

وعبرت عن آمالها هذه لصديقتها بأن تمت أن تراها هي وراضى في
زفة العرس عما قريب . فأجابتها بإطراق ذاهل عابس أفاقت منه قائلة :
هذا هو الذى أنمناه لك يا أختاه ، أما أنا ، فأحس كأننى مجندة لغرض
لا أعلم كنهه وكأن على أفق وجودى شيئا لا أفهم معناه . حقيقة إننى أحب
راضى لأنكى أشعر فى هذه الأيام أن حبي له غاص قليلا قليلا حتى غاب
فى أعماق قلبى كما تغوص السفينة بعد أن يملأها الماء . حقق الله لك آمالك
يا نادية ، إنك تمشين يا صديقتى على طريق ممهد تظلل الأشجار جانبيه .
أما أنا ففى مفترق طرق عارية خاوية غامضة مجهولة .

كانت نغمات الموسيقى تشق الطريق إلى آذانهما وهما فى مكان منعزل
بعيد فتصل إليهما واهنة ضعيفة ، وبدا وجه درية تحت عبء السهوم
منستظيلا جندا أكثر من المألوف لأن منظر بيت أبيها المزحوم كان قد

وثب إلى مخيلتها على حين كان رأس نادية مشغولا بوجه خطيبها المنتظر ،
بوجه « منصور » الذي تربط أسرته بأسرتها علاقات قديمة ، والذي تتوقع
الفتاة في كل شهر أن يتقدم إلى أبيها معلنا خطبتها .

وأتم راضى دراسته الثانوية في هذا العام كذلك ، ثم جعل يفكر
في أمر مستقبله ويوازن بين حياة زوجية مبكرة في ظل حب ومال غير
كثير تضيئها درية ، وبين حياة أخرى قد تكون أوسع وأرغد ، ولكن
حبيبته ليست شريكة فيها . وانتهى به التفكير إلى أن يلقاها ليعلن لها
خبرا يسعدها فينبئها أنه اكتشف شيئا عجبا لم يخطر على بالها من قبل ..
اكتشف أن قلبه محتاج إلى رعاية وعناية أكثر من اللتين يحتاج إليهما
عقله ، لأن عقله قد نال قسطا من الغذاء يستطيع أن يحيا به بقية عمره
أما قلبه فإنه لا يزال محروما لم ينل من غذاء القلوب الحد الأدنى لمستوى
المعيشة حتى يحيا كما تحيا القلوب ! !

وسهر الليلة السابقة للقاء ينمق العبارات ويزوق الألفاظ ويمثل كل
موقف ، ويتخيل وجهها النضر الجميل وهي تبسم لبشراء ثم ترخي أهدابها
لبرهة قصيرة تنظر بعدها إليه فتفصح العينان عن معنى وغرض . . .
ثم تلتقي الشفتان .

كان قطار حلوان يجري بهما مسرعا نحو الضاحية الساحرة في أصيل
اليوم وهما جالسان إلى جوار النافذة متقابلين في جلستهما . ولم يكن وجه
درية ناضرا ولا مشرقا ولا فصيحاً ، كان فيه ذبول وغموض كأنها تعالجها .

وانطلق راضى فى حديثه لا يتردد ولا يتلعثم وهى منصبة قليلة التعليق على ما يقول ، ملقية ببصرها إلى النافذة تراقب أعمدة التليفون على جانب الطريق وهى تجرى بسرعة إلى الوراء وكأنها كانت تعدها . كانت مستسامة إلى خواطرها وكان هو مستسلما إلى خواطره ، وخيل إليه أنها تتمثل كل مشهد من المشاهد التى يصفها وأنها مشغولة عنه به لا بشيء سواء . كان يقول :

ستكونين معى فى أى مكان وستكون السعادة حيث نحل معا . . . سأستصلح أرضا بورا وستكونين ركنى الذى أئىء إليه كلما مسنى التعب ، وإذا لم أوفق إلى نيل هذه الغاية بدأت تجارة برأس مال صغير فى أى بلد تروج فيه التجارة ، وستكونين أنت ربحى العظيم الذى يدعم أرباحى القليلة . مترحب بنا البقاع ما دمنا معا . . . وسنكون من أسعد الناس . درية ! ! ما بالك شاحبة هكذا ، صامتة كما يسكت المحزون ؟ ! وتركها تبتلع ريقها مفكرة فى الرد وناب عنها قائلا : يحدث كثيرا يا صديقتى أن يظهر السعداء بثل مظهرك هذا . ومن أجل ذلك لن أرهقك بسؤال . وتأهب مرة أخرى ليكمل حديثه الذى كان مسترسلا فيه ، لكنه فوجئ بردها عليه : لا . . . بل إننى أحس إرهاقا عاما لا أعرف مأناه . . . جسمى أشبه بأن يكون بيتا من البيوت المتداعية التى توشك أن تنقض ! ! وفعلت عبارتها هذه فى إحساساته الحارة ما تفعله حفنة الماء البارد حين تلقى بها فى قدر تفور . وجمعتما الحديقة اليابانية فى حلوان فجلا يتساقطان الحديث وقتا كان غير طويل خيمت فيه عليهما سحابة رأى فيها

الخصب والرى ورأت فيها الصواعق والرجوم . ولما قفل بهما القطار راجعا
بعد نزهة الليلة كانت درية ملقية بناظرها وخاطرها إلى الظلام الذى يحيم
على الصحراء فى طريقها وهى ممسكة عن الكلام بحجة أن الصداق بدأ
يناوش رأسها مرة أخرى .

على أن حيرتها واضطرابها وتبدل حالها وبلبلة أفكارها ، لم تكن
جميعها لتخفى على قلب الأم ، فلقد أحست أم درية أن فتاتها تعالجها طارئا
صعبه قليل من الشحوب وشيء من الشرود والسهوم ، وأفضت بهواجسها
هذه إلى زوجها ذات ليلة حين انفرد بهما المكان فصاح فيها بصوته
الجافى وطبعه الغليظ : ماذا تريدان أن تقولى أيتها السيدة . . . إنك
ناقصات عقل ودين ، أتريدان أن تهمنى بنيتى بالحب وأنا الذى أشرفت
على تربيتها ؟ ! ثم أستغفر الله ، ومسحب الغطاء على وجهه واستسلم للنوم
العميق .

ثم اختلت الأم ببيتها فى ضحى أحد الأيام وكانت الفتاة لاتزال فى
فراشها . . . نهض الجميع ولم تنهض هى لأنها تدخر قدرا من الراحة لأيام
عمل مقبلة لا تعلم ماذا فى ضميرها ، دخلت عليها الأم وجلست إلى جوارها
فى الفراش الذى تنام فيه وأخذت تمرر يدها الحنون على خدها وشعرها
ثم على جبينها وكتفها :

— درية ما بالك يا بنيه ؟ ! فقالت وهى تتشأب :

— لا شيء يا أماء . . .

— شحوب قليل يلون وجهك الوردى ، كأنه بداية أو نهاية لوعكة

أملت بك . . . ان قلوب الأمهات يابنيقي يشعرون بكل شيء . . . ويستمعون
إلى شبكة البنين ولو لم يبوحوا بها . . . أحس من بعيد كأنك متعبة ،
أو كأنك غير سعيدة .

— مطلقا يا أماه . (فثبتت الأم فيها ناظريها لتحملها على الصراحة)
— ليس هناك شيء سوى أنني أحس بوحشة تدخل إلى قلبي . وحشة
تزيد وتتكاثر بمرور الأيام حتى كادت تملأ صدري وحتى كاد القلب يضل
فيها كما يضل نور الشمعة في الضباب الكثيف ، وأظن أن ذلك راجع إلى
خوفي من أن أشغل وظيفة في مدينة بعيدة .

فتنهت الأم تنهدة عميقة كان الرثاء أكبر دافع إليها ، وعادت يدها
بحركة آلية لادخل الإرادة فيها تعبت بشعرها وتربت خدها وجبينها
ثم قالت :

— هناك خيط من النور يبدو على الأفق في أمر وظيفتك وقد قابل
أبوك بعض أولى الشأن فحدثوه بأنك ستعينين مدرسة . ثم قلبت الأم كفها
ولمعت عينها بالخاوف وتابعت حديثها : ولكن ، أين ؟ ؟ ذلك ما لا يعرفه
أحد ، إلا أنك ستوظفين على كل حال . هذا هو الذي قيل لأبيك يادريه ،
ولكنني أبتهل إلى الله في صلواتي أن تكوني في القاهرة حتى لا تبعدي
عن عيني . (والتقت عيونهما برهة فتبادلتا الحديث بسرعة ثم استرجعت
كل نظرتها وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى) .

كانت الأم تريد أن تحذر فتاتها من الحب فقالت لها الفتاة : أخشى
ألا أستطيع .

— على أنى يا بني أعتمد أن عناية الله لن تتخلى عن الضعفاء ، وأنت
ترين أنه لابد من العمل . لقد بدأ أبوك يتآكل ويندوب كما تتلاشى قطعة
الزبد تلقين بها في حرارة المقلاة . كان جوادا كثير الكبوات ولم يستطع
أحد أصلاحه ، وقد أخذت عليه الخمر مذاهب تفكيره . وأحس أن فيك
عظمة نفس . . . فيك كبرياء كثيرا مانصون الفتاة من الأحداث الجسام .
خصوصا إذا عاشت في غربة ، وكانت وحدها ! ! هل تفهمين ما أعنى
يا درية ؟ ! من حظى أنى تزوجت رجلا سكيماً فقيراً ، ومن حظى كذلك
أنى كثيرة الأبناء ، ومن حظك أنت أنك بكر أبوين فقيرين أبنائها
كثار . أبوك يادرية رجل طيب لكنه سيء التصرف . . . ولكن هكذا
حظه في الحياة ! ! (وتسكت قليلا ثم تنظر إلى بنتها نظرة ثابتة لا حركة
فيها ثم تسألها) : هل تؤمنين بالحظ ؟

فتعتدل الفتاة في فراشها وهي تقول : نعم يا أماء . . . أومن به إيماناً
عظيماً . فتقبلها في جبينها قبلة تدل على الرضا وتلاقى الآراء ، ثم تدعو لها
بالحظ والتوفيق .

وتحس درية منذ ذلك الحين أنها مجتدة لمهمة كبرى ، وأن أباهما هذا
الذى بدأ البقم يدب في بنائه المكين ، رجل في طريقه إلى الفناء ، وأنها
ستمسك العصا من بعده وستنظر الفرقة إلى القائد فتجده امرأة ومن
ورائها عذراء .

وتأخذ أنفاس الصيف في الفتور شيئاً فشيئاً وتلمح تباشير الخريف
في صفرة باكرة تجرى على ورق الشجر ونسمات عابرة رعناء تجر أذيالها

مع الساء . ويدخل عم خيضر أفندي بيته في أحد هذه الأيام فلا يتخطى عتبة حتى يرفع عقيرته معلنا بشرى سعيدة لم يحتملها قلبه طول الطريق فحدث بها كل من لاقاه من الناس ، رفع عقيرته معلنا نبأ تعيين درية مدرسة في إحدى مدارس البنات في مدينة طنطا . وهجم على بنته يلثم جبينها وخديها ثم تركها إلى بقية أبنائه فأوسعهم لثما وتقيلا ، على حين كانت درية وأمها يتبادلان النظرات في فرح يمازجه كثير من الخوف والوحشة .

وغادر الأب بيته بعد قليل قاصدا حانة « حسن الختام » ليغسل قلبه الصدى فيها بكأس من الزبيب النقي احتفالا بهذا الخبر السعيد وسهرت الأم إلى جوار بنتها تزودها بما تزود به الأمهات بناتهن من نصائح ثم تركتها إلى مخدعها فلم ترنق في عينيها سنة ، حتى سمعت وقع أقدام متخبطة ثقيلة تتعثر على سلم البيت عرفت فيها أقدام أبيها فطفرت من عينا دموع حارت في تعليل طفورها ، ولم تلبث طويلا بعد ذلك حتى انزعها النوم من أفكارها .

وكان لا بد لها قبل أن تسافر إلى طنطا أن تصفى موقفها حيال راضى قد تأهبت لهذا الموقف منذ شهور ووطنت نفسها عليه حتى خيل إليها أن في قلبها من القوة ما يستطيع بها أن يلفظ من الأحباب حبيبا سكنه تين عاما ، وخيل إليها كذلك أن هناك نوعا من الأمراض يصيب قلوب فيقتل فيها استعدادها الطبيعي لاستقبال أى رسالة ، فيعيش القلب مره وهو لا يعرف إلا النبضات الرسمية التى يوزع بها الدم لا غير ،

أما النبضة الفنية ذات الألم اللذيد والوخزة الحلوة فهي شيء لا تستطيع معرفته القلوب المريضة .

ثم كان بينهما لقاء أخير ، جمعت فيه درية كبرياء بنات حواء كلها وعملت منها قناعا ألقته على وجهها . كانا في أصيل من أصائل الخريف أصفر شاحب ، وكانا جالسين على كرسي مستطيل فوق قنطرة مقوسة أقيمت على بركة طفا على وجهها البشنين ، في إحدى الحدائق العامة . غير أن الدنيا كلها كانت خرابا فلم يكن حولهما في الحديقة أحد إلا بعض الفنانين الهواة الذين يعجبهم من وجه الكون ما لا يعجب كل الناس . فهناك أحد الرسامين وقف منهمكا في رسم لوحته الزيتية . وهناك في الطرف الآخر موسيقي صغير افترش الحشيش وجعل يداعب أوتار عوده . أما هما فقد كانا ينظران إلى الشمس الغاربة السقيمة وهي ترسل بأشعتها متعثرة بين فروع إحدى الأشجار الضخمة ، ويستمعان برهة إلى نغمة ناشرة يرسلها الموسيقي الصغير ثم ينصتان برهة أخرى إلى خشخشة الأوراق التي تتساقط من الشجر زاوية جافة فلا تلبث زوبعة خفيفة أن تأخذها وتدور بها في الماشى إلى مدى غير طويل .

كل شيء يؤذن بالفراق حتى الطبيعة كان على أفقها وجوم ، وألقت درية إلى صديقها أول ما جلسا بنجر تعيينها مدرسة في إحدى مدارس طنطا ثم أمسكت عن الحديث فلم تقل شيئا ، وجعلت تنصت إلى زفراته المكتومة التي حاول أن يخفف بها عن نفسه ثم سمعت إليه وهو يتكلم على نغمات منتظمة انبعثت من طرق خفيف كان يوقعه برجله على خشب القنطرة .

— ومادام الأمر كذلك فما الذى حدا بك إلى أن تتكبدى متاعب الانتقال إلى هذا المكان .

كان يتكلم وهو غير ناظر إليها فردت عليه دون أن تحول إليه وجهها :
— هل كنت ترى من الخير أن أخلف ميعادا اتفقنا على اللقاء فيه ؟ ..
وإذا كان الأمر كذلك فإن استطاعتنا أن نفرق منذ الآن ، على أن
الفرقة واقعة من تلقاء نفسها فلا معنى إذن أن نفعل كما يفعل الأطفال حين
يقولون للسماء وهى تمطر : « أمطري يا سماء » .

— كل الذى أشتاقه هو أن أعلم سر تحولات .
— وكل الذى أشتاقه هو أن أعلم سر استمساكك بفتاة مثلى .
— لأنك الفتاة الأولى التى رآها القلب أول ما نظر ، لكنك آثرت
حياة العمل على حياة الزواج . . . كنت أريد أن أجعل منك أسعد زوجة
لأسعد رجل ولكنك فاجأتني اليوم بتحملك من كل العهود كأن الذى
حدث لم يكن بينى وبينك وإنما كان بينى وبين فتاة سواك . لقد جعلتني
درك فجأة أننى ضعيف وأن الله لم يمنحني من القوة ما أستطيع بها أن
أحفظ بحبيب .

— ليس فى الأمر ضعف ولا قوة ولا خيانة ولكن الظروف هى التى
ألت بيننا وبين أمانينا . اسمع يا راضى أنا لا أستطيع أن أتزوجك عاجلا
لا أن أعدك بالزواج إذا رضيت بالذى أغضبك أول الأمر وهو أننى
أعيش وحدى فى مدينة بعيدة ، لا أستطيع الزواج ولا الوعد به لأن
يثا لم أكن أتوقعه برز فجأة فى طريق حياتي فخملنى على التحول ،

فلا يؤسفك هذا .

فقال بغيظ شديد : وكل الذي اشتاقه هو أن أعرف هذا .

فأجابته بهدوء بارد :

— ألم تقل لي منذ برهة أنك تتمسك بي لأنني الفتاة الأولى التي

رآها القلب أول ما نظر ؟ !

فغفر فاه وفتح عينيه وأوماً برأسه أن أكمل الحديث :

— إذن فأنت لا تستطيع أن تتحول عن حبك الأول بسهولة ؟ ..و..

وأمسكت عن الكلام ونظرت إليه في كبرياء ظهر الحزن على حواشها

فظن راضى أنها ترثي لبواه ، بعد أن فهم من حديثهما أن حبيبها أول ظهر

في نطاقها من جديد ! !

كانت الشمس محالقة على الأفق الغربي تكاد تهوى إلى مستقرها البعيد

وهناك زوبعة ليست ضعيفة ولا عنيفة تمشخس بأغصان الغاب وتسكنس

جفيف الورق ، وكان المصور يجمع ألوانه وألواحه والموسيقي الصغير يعزف

لحنا حزينا كأنه يهديه إلى هذين القلبين ، أما أوراق البشنيين فانها كانت

ترتعش على صفحة الماء كأن منجلا يجز في أصولها من أسفل ، كل ذلك

والشعاع الغارب واقع على خديهما وهما متواجهان وكأن سيفاً مصلتا قام

بين شخصيهما .

كان كل منهما يتيماً للقيام لكنه كان منتظرا حتى يبدأ به صاحبه ثم

شغلها عن القيام شاغل جعلهما ينظران إليه برهة في تعجب واستغراق :

فقد كان على مرمى بصرهما بركة سبحت فيها طيور الماء إلا زوجا واحدا

من هذه الطيور فانه انتحى ناحية من البركة ووقف على رأس أحد الخلدجان وبدأ يتناوشان ثم اشتبكا في عراق ظل فترة من الزمن وظلت عيون الحبيبين تتابعه في جمود شارد وشخوص غريب حتى حانت النهاية يرأى الناظران أحد الطائرين يخر على الأرض ثم يزحف ضعيفا واهنا تتوانيا حتى يصل إلى لجة الماء فينتفض كأنما أفاق من غيبوبة ثم يسبح نابضا في لجة الماء إلى حيث تقوم على مقربة منه خميلة من الغاب قصد إلى الإلهما . أما الآخر فقد ظل واقفا في مكانه يحرك عنقه إلى كل ناحية يقلب ناظريه في كل جانب وكأنه حيران . وانحسرت نظرات الصديقين عن هذا المشهد لتلتقي مرة أخرى ثم تخاطبا بالعيون فقال راضى : لعالمها الأنثى ...
أنثى هى التى خانت . فأجابته قائلة بعينها : وما يدريك ؟ لعل الأمر لى عكس ماتقول :

ثم نهضت من مكانها فنهض فى إثرها ووقفا لحظة على قمة القنطرة نموسة ثم اتخذ كل منهما ناحية فى هبوطه إلى أرض الحديقة . سارت يمينا سار شمالا كأنه لم يكن بينهما عهد . وقد كانت درية أشجع على تحمل يقف من صديقها المسكين لأنها تابعت سيرها لا تقف ولا تتلفت . أما هو ه وقف بعد بضع خطوات وأخذ يتابعها بعينه حتى غابت خلال الأشجار .
أبه يمستك جنبه كأنه مطعون . . . لقد أحست كبده حرارة الشوق را لأنه يحب . وما أفاق حتى تراجع سريعا إلى حيث تقوم القنطرة خذ يثب على ظهرها المقوس وثبات كان من الممكن أن يختل توازنه فيها ، إذا ما عبر البركة جد مسرعا فى إثر درية التى لم تقل له كلمة وداع حتى نيهها لكنها ضلت منه فى مماشى الحديقة .

obeykandi.com

ماذا كان يريد أن يقول لها يا ترى ؟ !

ما أعجب قلوب العاشقين ! ! إنهم دائماً يتطلبون الحبيب النافر ،
وأغلى القلوب قلب تحترق في سبيله أوصلهم وهم في طريقهم إلى كسبه .
لو أنها جادت عليه بقبلة ، ثم أمسكت أهدابها وتعمت صوتها وقالت
له : ان أنساك ، لكان من الجائز جداً أنه ينساها ، لكنها تعمدت أن
تطلق الطائر من قفصها ولو أنه عزيز عليها ، ثم تضع كفها على عينيها
وتتركه يطير إلى أى اتجاه يشاء .

اعلمها كانت تساءل نفسها وهي راجعة : لم فعلت هذا ؟ أليس فيه
قسوة ؟ ! ثم تعود فتتناسى سؤالها لأن كبرياءها لا تسمح لها بأن تتراجع .
أما راضى فقد رجع بعد هذا اللقاء بصفقة الخاسر وحسرة المغبون . . .

كان يحس أن الدنيا كلها سخرت منه ، وأنه لا شىء فيها يرثى لمصابه ، وأن كارثة عاطفية كبرى حاقت به فأتلقت عليه الماضى والحاضر والمستقبل ، فلا ذكريات ، ولا راحة ، ولا آمال . وكان يزور مجلسهما على القنطرة المقوسة مدة إقامته فى القاهرة للعظة والعبرة ، كما يزور الأحياء منازل الأموات . وكان قلبه يزعم له فى كل مرة أنه خلو من الذكريات ، وأنه أضرم النار فى كل ما خلفته ، فلم يبق فيه أثر لماضيها .

ثم زحفت الأيام عليهما بعد ذلك حافلة بالحوادث . وحانت الليلة الأخيرة لمقامهما فى القاهرة ، وعرجت على نادبة تودعهما . وشهد هذا المساء الحريقى المتلفع بالضباب تعانق الصديقتين ودموعهما وهما تتبادلان القبل والدعاء والأمانى ، وربما كان راضى فى هذه اللحظة أو فى تلك الليلة ، ملقيا برأسه على ظهر كرسي مريح فى إحدى الحجرات من بيت صديقه سعيد الذى يسكن حيا متوسطا من أحياء القاهرة ، ربما كان هناك يكلم صديقه وعيناه ناظرتان إلى السقف تطالعان آثار زخرفة قديمة ، وكان سعيد يرسل بحلقات الدخان من فمه متزاحمة دوارة وراضى يقص عليه قصة غرام ، وحب تلونت حوادثه وتقلبت أحواله ، كما تتلون حظوظ الملتفين حول الموائد الخضراء .

ولم يكن ذلك الفتى الذى جعل يندب آماله فى حضرة صاحبه ، مفصحا عن شخصية التى غدرته ، كان يحيطها بهالة من القدسية فى قلبه أيام كانا على وفاق ، ثم جعل اليوم يحيطها بهالة من الغموض والرغبة ويتصور فيها امرأة شديدة المراس خبيرة بقلوب الرجال ، بين يديها منها نماذج

كثيرة فاضلت بينها واختارت حتى كان قلب راضى من المنفيات . ولم يلح عليه سعيد فى المسألة كأنه كان ينظر إلى مأساته كما ينظر صاحب المصنع إلى المادة الخام ، كان شاعرا يألم لنوازل الناس ولكنه كان يقتبط حين تضع الظروف فى طريقه جندوة من زفرات القلوب يجعل منها قبسا لإحدى قصائده .

ثم بات سعيد ينظم من المأساة مقطوعة شعرية ، وبات راضى ، يفكر فى الخطوة التالية التى يجب أن يخطوها قلبه بعد أن ينزع السهم من شغافه وباتت درية ليلتها هذه تهيل التراب على الماضى بيد فيها قسوة وعين فيها دموع وتطلع إلى المستقبل من وراء الحجب ثم تسترد طرفها حاسرا كليلا .

شهدت محطة طنطا فى ضحاى اليوم التالى فتاة ناحلة العود تشق طريقها بين الهابطين إلى المدينة بوجه ساهم وجمال فقير . وكان فى يئناها حقيبة كبيرة قص أبوها عليها قصتها ساعة كانت تحشوها بالملابس والحاجات ليلة أمس ، فقال أنه يعتز بها كثيرا ولكنها لا تعز عليها . . . لقد اشتراها مخيمر أفندى منذ ثلاثين عاما أيام كانت حقائب السفر لا يحملها إلا المترفون ، ثم ارتحلت معه حقيقته هذه إلى مواطن كثيرة من أرض الله يوم كان موظفا صغيرا عازبا خالى البال سيء التصريف لا يعلم من أمور الدنيا شيئا ! وختم الوالد كلامه قائلا لها : إنك ستذكرين بها أباك يا درية دائما وفى كل وقت لحافظى عليها .

وفرغت درية فى ميرها من قطع الرصيف العريض العالى فألفت نفسها

أمام أحد الأنفاق التي تؤدي بالهابطين إلى الميدان الرئيسي الكبير في مدينة طنطا . وأخذت المسافرة المرتبكة في هبوط الدرج بين زحمة النازلين وهي مستسلمة لأفكارها مرسلّة ببصرها الشارد إلى نهاية الطريق المخوف تحت سطح الأرض . واعلمها كانت في هذه اللحظة تفكر فيما عساه ينتظرها في وطنها الجديد . لكن حدثا عارضا مفاجئا اغتصبها من هذه الأفكار حتى جعلها تذكر أباه . . . تذكره وحده بشكل عجيب وهيئة واضحة والدموع تترقق في مقلتيها .

كانت جموع المسافرين القاصدين إلى المدينة تتدفق على سلم النفق لا تمكث ولا تترث ولا تبذل من معونة لهذه الوحيدة أكثر من نظرة عطف أو ابتسامة سخيرة ، وكانت هي منكبة وحدها تجمع بكلمات يديها ما تنثر من ملابس وحاجات لفظتها حقيقة أبيها بعد أن وهى قفلهما فانفتحت فجأة وأخذت الحاجات تتدحرج على السلم كأنها تريد أن تسبق صاحبها إلى دخول المدينة ! !

وذكرت درية أباه في ذلك الموطن الحرج وأخذت الدموع المترققة تزداد قليلا قليلا بعد أن أعادت الحقيقة إلى وضعها الأول وشرعت تنقل قدميها على أرض الطريق في خطا متشائمة حزينة ، حتى دخلت طنطا ندية الخدين

كل المدرسات بمدرسة الفنون بالمدينة يكدن يكن منها أو من القرى القريبة إلا أربعا منهن تدخل في حسابهن الآنسة درية ، وقد أعدت المدرسة للغربيات قسما داخليا يقمن فيه تتوفر فيه راحة وطمأنينة للآئي يجبرهن الرغبة على الإقامة بعيدا عن أوطانهن الأصلية .

ولم تكن حجرات القسم الداخلى لتتسع إحداها لأكثر من سريرين
لذلك كان هناك فى الطبقة العليا من المدرسة حجرتان متجاورتان تطل
نوافذهما نحو الشرق على منظر رائع ، فىرى الناظر أول ما يرى حديقة
خلفية مستطيلة يشرف المطل من إحدى النوافذ على عرضها الذى لا يزيد
على خمسة أمتار ، وقد حرص المشرف على شئونها أن يجعل منها حقلا
ومتنزها وجنيئة ، فبين شجيرات الفاكهة المتباعدة المنثورة تستطيع اليد
أن تقتطف زهرا وأن تحش بقولا .

وتنحصر هذه الحديقة الخلفية المستطيلة بين أحد المباني وبين السور ،
وينفذ إليها الماء من فتحة جوفت فى هذا الجدار الواطى حيث تتصل بقناة
لا تكاد يحف ، على سيفها ممشى غير عريض أهملته الأيدي لأنه فى ظاهر
المدينة فتولته يد الطبيعة على مر الليالى حتى فرشته ببساط من النجيل كست
غزير تبرق عليه حبات الندى فى الضحوات فى فتنة لا تراها إلا عيون المطات
من القسم الداخلى بمدرسة الفنون . وينحصر الممشى والقناة بين سور
المدرسة الذى بنى من الآجروسور صخرى آخر استدار حول ملعب المدرسة
الثانوية وهو واسع مربع الرقعة يجعل أشعة العيون الناضرة سن حجرة
درية لا تتعثر فى بناء مطلقا حتى تقع على بعض البيوت بعيدا بعيدا ، ثم على
نوافذ أحد المستشفيات .

وعلى هذا المنظر الساحر تفتحت عيناها حين نفضت عن جسدها
الغطاء ، وتدفق إليها النسيم عطرا نديا يحمل إليها تحيات الحقول فأحسها
المررة الأولى فى عمرها فنسيت جرح المذلة الذى أصابها فى ضحى اليوم

الماضى حين تبعثرت حاجاتها على سلم النفق وعلى مرأى من الناس . ثم اندمجت بعد ذلك فى غمار الحياة شيئاً فشيئاً وبدأت تحس أنها ولدت بعيدة عن أبويها هكذا منذ أدركت أنها موجودة ، وقل تحدثها عن أمها وأبيها فى سمر الليل الذى تألف فيه أربعتهن كل مساء . ولم يكن بين هؤلاء الفتيات فى الأشهر الأولى من مقامهن شىء خارج عن نطاق المألوف . كن يجتمعن فى إحدى الحجرتين فيتناولن شئون الحياة ، ويامسن شئون القلوب لمسا خفيفا ليس فيه تطفل ولا تضيق ، كانت كل منهن تحب من تحب من مجموعهن وتقبل من لا تحبها على علاقتها . على أن شخصية « عفيفة » بينهم كانت مشارا للضحك ومبعثا للتخفف من الهموم ، كن جميعا يتسلين بقصصها وحديثها ويضحكن من آلامها ودموعها فى كثير من الأحيان . كانت ذات قبح ومذاجة ونفسية متعطشة للحياة التى لا تواتيها — على وضع يدعو إلى الرثاء لا إلى السخرية .

كانت كبيرة السن بين شابات ثلاث لا يزلن زهرات فى أول الموسم ، تخطت الأربعين وبقيت تحت خطاها فى أثر قطار الشباب والزواج والحب ، وتبدل فى سبيل الاحاق به حيلاً تظنها جديدة فعالة محبوبكة ، دون أن تدري أن حيلها مع الأسف قديمة مهلهلة تثير الابتسام . ثم هى بعد ذلك فارهة طويلة تداخلت أجزاء جسدها حتى غاب الخصر وظهرت الأرداف ، وبرز الصدر على هيئة تحبب الرجال فى الصدور المقفرة المسوخة لأن النقيض قد يكون خيرا من نقيضه . وتلوح من وراء منظارها السميك عينان فيها اتساع غير جميل وفى مقلتيهما السكيرتين جحوظ قليل .

وفي الحجرة المتوسطة المساحة ذات السريرين ، كانت تشارك عفيفة هذه زميلتها عائدة ، وهى زهرة لاتزال فى سبيل التفتح ، فكانت بالنسبة إلى زميلتها أشبه شىء بمحك حاد لا يفتر عن العمل حتى حولت قلب جارتها وأعصابها إلى معترك دائم للأمانى والشجون .

وأما الحجرة الأخرى التى يشغل سرير درية أحد نصفها ، فقد كان بها الأنسة نجاح ، وهى فتاة طيبة مسكينة قنعت من دنياها بأن تراقب الحوادث ولا تشارك فيها ، وقد نشأ انكسار نفسها هذا وسواد مزاجها من مرض باطنى مزمن حاد لم توفق إلى علاجه حتى تركها ناحلة ذابلة سقيمة ، ولو أنها فى مستقبل العمر ، لكن على وجهها فضلات من جمال ، نجت من ذلك الحريق الهائل .

* * *

كان الوقت ليلاً والنوافذ مقفلة وقد أسدلت عليها الستائر والشتاء فى أخرياته ، لكنه كان نشيط الحركة فى هذه الليلة تصفر رياحه فى ذوائب شجرة المانجو الكبيرة التى تقوم بين باقى الأشجار فى حديقة المدرسة ، وكأنها أم الجميع .

وقلقت درية من نومها على صوت هذه المظاهرة الجوية فانبعثت فى داخلها قلق ووحشة ، ثم جعلت تنصت بعد ذلك إلى صوت قرص خفيف لم تتبين موضعه بالضبط ، فلم تدر أهو فى صوان ملابسها هى أم فى صوان زميلتها نجاح . وهمت أن تقوم فى الظلام لتحسس زر النور خوفاً من أن يكون أحد جرذان الحقول قد تسرب إلى صوان الملابس ، ولكنها عز

عليها أن تزايل مرقدتها الدافئ ، فتلففت بأعطيتها وبدأت تتسمع ، لكن الصوت كان قد انقطع ، وهادنت الرياح ذوائب الشجرة ، فسكن الحفيف إلى فترة من الزمن ، وخيل إلى درية أن زميلتها نجاح غير نائمة ، لأن أنفاسها لم تكن في انتظام أنفاس النائمين ، فمتحنجت درية لتعلن أنها غير نائمة ، وبدأت الأخرى تنأ أنينا خفيفا ، فترق صوت في ظلام الحجرة ليسأل:

— ما بك يا نجاح ؟ ظننتك نائمة !!

— لا شيء يا أختي . . . أنا بخير . . . على أنني لم أتم حتى الساعة . . . ألقني مغص لم يهادني إلا منذ لحظة .

— إذن فقد كنت تسمعين قرض الفيران في صوان الملابس منذ لحظات .

فضحكت ضحكة متهافتة اقتلعتها من بين آلامها بعنف ثم قالت :

— لم يكن هناك جردان يا صديقي تقرر شيئا من محتويات الصوان فما أظن ، وإنما كان هناك جردان تقرر في جسمي . . . كنت أصر بأسناني كلما عضني الألم !!

فصممت درية بشفتيها ألما وحسرة ثم ساد صمت موحش جسمت وحشته نعات الزوبعة ذات الذشوز وهي تتعثر في الخارج بين تلافيف شجرة المانجو ، وانقطع حبل الصمت حين قالت درية :

— إيه . . . لا بد من الصبر يا أختاه !!

— صبر العاجزين أيتها الصديقة ، وماذا عسى أن أفعل لو أنني تمردت على الواقع . . . لو أنني غنية . . .

وتنهدت وسكنت فوضعت درية كفها على جبينها تذكر حوادث
الماضى القريب ، وخيل إليها أن قضية نجاح أعسر من قضيتها ثم استحثتها
على أن تكمل الحديث :

— آه . . . لو أنك غنية . . . ماذا كنت تفعلين ؟ !

— لا شيء ، سوى أنني كنت أنقطع عن العمل . . . لكنني
غير مختارة ! !

وساد الصمت مرة أخرى وسكن حفيف الشجر سكونا طويلا كأن
السكون أراد أن ينصت إلى قصة ، ودقت ساعة البرج في الميدان القريب
دقتين اثنتين خيل إلى الفتاتين أن فيهما خدر النعاس ، وشمل السكون
مرة أخرى ثم شرعت نجاح تتحدث :

— ليتني كنت يتيمة ، لكنني لم أكن يتيمة ، وإنما ولدت في بيت
الطاعة وتقول أمي : إن شموع سبوعى لم تكد تنهى وتأكلها النار حتى
خرجت بي مطرودة من بيت الطاعة ، ثم رحل أبي عن وطننا إلى مكان
بعيد وبقيت في بيت خالي يكفلنا الرجل على ضيق ، وظلمت أنا وأمي
منزويتين في أحد أركان داره كائمتين عنه ما تقاسيه عن عنت زوجته حتى
أكملت دراستي ثم بدأت الأمراض تظهر على مرة واحدة . ولكن ماذا
عسى أن ينال المرض يا درية من فتاة تعول امرأتين ؟ ! فإما أن نموت من
العمل ، وإما أن نموت من الجوع ! !

ثم شرقت بدمعها فكفت عن الكلام ، وسحبت الغطاء على وجهها
وتركت درية تفكر فيما تفكر فيه :

كلنا هنا ذوات هموم ، إلا عايدة فإنها تحمل هم قلوبها وحده ! !
وعفيفة تحمل هم قلبها وعقلها في وقت واحد . وأنا ؟ ! ترى ماذا يكون
مصري ! ! إن الخطابات التي تأتي من القاهرة تم عن أن أبي يتدحرج
في المنحدر وهو لا يدرى أنه يتدحرج ، يقول : إنه ذهب إلى الطبيب
للمرة الأولى في حياته ، وذهب مضطرا ساخرا لأنه لا يؤمن بما يقولون ،
والمصيبة الكبرى في نظره أنه منعه عن مأكولات خاصة وعن مشروبات
خاصة وليست العضلة في المأكولات الممنوعة عنه لأنها ليست متوفرة
في البيت وإنما العضلة الكبرى في بعض المشروبات الممنوعة ! !

وقد قال هذا الطبيب الغر الذي ضحك منه أبوها في سرية لأنه رآه
في الخامسة والعشرين ، قال : إن أباه مريض بارتفاع ضغط الدم ،
وما ضغط الدم هذا ؟ ! إن عبقرية والدها تفسره بأنه خرافة يلجأ إليها
الطبيب الذي يجد بين يديه مريضا لا داء فيه . ثم تنقضى فترة وتتلقي درية
رسالة أخرى تعلم منها أن المعونة المالية الشهرية قد استقل بها أبوها وحده
في هذه المرة ، ومن هذه المعونة دخل الدواء بيدهم للمرة الثانية .

وجرت الحياة السكنية بين أربع الآنسات هؤلاء مجرى فيه شبه كثير
من الحياة الواسعة الكبيره : فينهن عفيفة التي تتحدث عن حب وخطبة
ورجوع وفسخ وشباب وزواج فيضحكن أو يتألمن ، وبينهن نجاح التي تهتم
دائما باسم كل دواء جديد حتى ملأت من قصاصات الجرائد التي تعلن عن
الأدوية حقيقية يد قديمة عندها . وبينهن عايدة ذات الجمال الطائش والقلب
المتهافت والعواطف التي تتسع لمائة حبيب ، وهذه درية ذات الماضي القصير

الذى تلمع فى نواحيه الدموع والكبرياء والحسن والطموح . يخطر
« راضى » على بالها خطرات فتحول قلبها عن طريقه عنوة وقسرا كما
تدفع الظمان عن أن يرد الحوض .

وسكن الليل عليها وحدها وكان ليلا ربيعيا هادئا يتنفس بسهولة ،
وأحست درية أن فى صدرها سعة لم تألفها من قبل ، على أن الهدوء كان
شاملا والمدرسة كانت ساكنة خالية كأنها تريد أن تستجم من صدام
النهار . كانت الثلاث الأخريات قد سافرن وقررت آخرهن فى الرحيل
رحيلها فجأة وعلى غير انتظار فخلا المكان على درية ، ولم يكن من المعقول
أن تسافر مرغمة لأنها كانت فى القاهرة فى آخر الأسبوع المنصرم .

وأخذت تدور فى الحجرة كأنها تفتش عن شئ لا تجده ، وربما
كانت لا تعرف الذى تفتش عنه ثم انقلبت إلى مفتاح المذياع تديره فإذا به
صامت لا يتكلم ، لقد أرهقته عايده فى إرساله أثر « إسطوانات » الغرام
فى كل محطة وفى كل قطر فغرق الليلة بين ركام المتاعب وقادتها قدمها نحو
النافذة فهصرت ستارها ثم انحنت معتمدة على ذراعها . وطالعت من
السكون وجهها رائعا تلمع فيه البسمة من كل جانب كأنه كان يحيطها ، حتى
ذوئب شجرة المسانجو برقت تحت أشعة القمر كأنها ثوب من المخمل ،
وقلبت وجهها فى كل صوب فأحست فتنة ساكنة تتسرب إلى أعماق
النفوس ، ثم قلبت وجهها فى السماء فرأت القمر يمشى الهوينى حتى يلامس
سحابة أهلها بقية من ميراث فصل الشتاء ويبدأ القمر فى خوضها فتبدأ
درية فى الغناء ! !

لقد غنت من قبل وهى فى المطبخ إلى جانب موقد البترول وجعلت
من عجيجه موسيقا ترسل نبراتھا الحلوة ، ثم غنت مرة ومرات بين
زميلاتها فى المسكن محاكية الشهيرات من أهل الفن . ولكنها فى هذه
الليلة أحست كأن فى باطنها كنزا . وجعل القمر يتخايل متعثرًا فى لجة
السحابة وهى تصب أنعامها فى سكون الليل ، ثم أطل عليها القمر مرة
أخرى فخالت أنها نجته من الغرق وأنها أرسلت إليه حبالا من صوتها الفضى
حتى انتشله ! ! فابتسمت ! !

ثم أوت إلى فراشها ، لكن تصفيق الجمهور وهتافه باتا يدويان
فى آذانها حتى نهضت من الفراش ! !

فقد « راضى » توزانه بعد تلك الصدمة التى أهدتها إليه صديفته.
 باكرة وعلى غير انتظار ، كانت كأنها واسطته إلى الوجود فلما فقدتها
 لم يعد يرى شيئا ، ثم استرد من يديها أعصابا تالفة ممزقة كأنها لعاب
 الشمس وبخاصة بعد أن سمع رأى صديقه سعيد الذى قال وهو يرسل
 حلقات الدخان من فمه كثيفة دوارة ويشرد بصره بين كل فينة وفينة :
 إننى أرثى لبلواك يا صديقى . . . حقيقة إنها كارثة . . . أنا شخصيا
 لم أجرب الحب الذى عرفتموه لأننى رجل خجول ، ولا تفهم من ذلك
 أن قلبى لا ينغم خفقاته بل هو على العكس ينغمها ويرقص عليها فى وقت
 واحد . ثم ضحك ضحكة تمثيلية عالية رنانة وقذف ببقية اللفافة من النافذة
 وتنفس طويلا ثم وصل حديثه :

يذكرني قلبي هذا الذي يغنى لنفسه ويرقص على الغناء بالرعاة السذج
الذين صورهم شعراء الإغريق . وهكذا وجب أن تعرف أنني أحب ،
وأحب كثيرا ، لكنه حب . . . من طرف واحد . . . من ناحيتي أنا . .
وهل أنا شيء قليل ؟ !

لكأن صديقتك هذه يا صاحبي قد مزقت في وجهك ثوبا حريريا
سهرت على نسجه من أجلها ليالى طويلة ، فما أقبح ما كافأتك به ! !
وأحس راضى كأن هموم الحياة تجمعت على كتفيه حتى سقط بها متهافتا
صريعا لا يقوى على الحركة وخيل إليه أن سعيدا يعيث فسادا في جراح
قلبه مدعيا أنه يقصد إلى إبرائها ، فأخذ هذا القلب السليم الطيب يشعر
بديب النعمة في خلاياه حتى استحالت بعد فترة قصيرة إلى نار تكاد تأكل
صاحبها نفسه .

وكان لابد له من أن يشغل وظيفة ما ، لأنه يريد نوعا من العمل
يتسيه هموم نفسه ، ويأجيدا لو كان بعيدا عن العاصمة ، ليهاجر من موطن
الذكرى ويهجرها ، عسى أن يكتب له القدر لونا جديدا من الحياة ،
يسخو عليه فيها بعد القسوة والحرمان ، فيلتقى في الطريق بالتي تأسو
ما جرحته يد الأولى .

وباتت الليالى التى سيقمها في القاهرة ليالى تعد على أصابع اليد
ثم يحىء الأوان الذى سيرحل فيه النصف الثانى لزوجين بخلت عليهما
الحوادث فلم تجمع بين شخصيهما .

لم تكن هنالك نافذة مفتوحة من الثلاث التى تطل على الشارع ،

إلا النافذة الأخيرة للحجرة التي كانت تنام فيها درية في مسكن والدها ،
وحتى هذه النافذة لم يكن مفتوحا منها إلا مصراع واحد من نصفها الأسفل
مصراع خشبي واحد والزجاج معلق لأن الجو كان أدنى إلى البرودة . وكان
راضى في هذه الليلة جاثما خلف المصاريع الخشبية في نافذة المدرسة يرقب
ويتسمع عنه يرى خيالا أو يسمع صوتا من فتاة أخلفت ظنونه كلها ،
وكان يسائل نفسه في إلحاح وقسوة وألم عن الذى دعاه إلى أن يتجشم
هذا الذى تجشمه فتجيبه إجابات كثيرة لم يقر منها إلا آخر واحدة فيها :
وهى أنه يريد أن يلقي على الشريرة نظرة أخيرة . . . يريد أن يعرف
ملامح الأفاعى فادمن النظر إليها حتى لا يخدع فيها مرة أخرى ١١

وظل الخيال الذى ظنه خيالها يرف من خلف الزجاج وهو يغدو
ويروح ، والصوت الرقيق الخافت الذى ظنه صوتها يبعد إلى داخل المسكن
حتى يغيب ويقرب من النافذة حتى يسمع ، ظل كذلك فترة كان راضى
خلالها يحس أنفاس الثاوج على أطرافه وحرارة الجمر بين ضلوعه وصوابع
الشكوك تتقاذفه فيما بينها فى غدو ورواح مثل كرة « البنج بنج » . ظل
كذلك حتى وقعت المعجزة فسمع صوتا ينادى فى الحارة هاتفا باسم مخيمر
أفندى ، ولعله كان أحد أصدقائه من رواد حانة « حسين الختام » لأن
عقدة خفيفة كانت بادية الأثر على حوائى ندائه . وتتابعت ضربات قلب
راضى وتداركت أنفاسه واقتربت الساعة الحاسمة فى ليلته الأخيرة ، وتراقص
الخيال خلف الزجاج المضىء فتوقع خيرا من انفتاح هذه النافذة ، وكانت
صاحبة اليد التى تعالج المصراع تتحدث بصوت مرتفع نوعا ، فاحت منه

رائحة صوت درية ، فعرض الرابض وراء النافذة شفته حتى كاد يدميها ،
وعلمت عيناه بالخيال ليلقى على الشريرة نظرة أخيرة ! !
كان هنالك شبه كبير بين الفتاتين ، لكنها لم تكن هي على كل حال .
كانت أختها التي تليها في الميلاد ، وقد بدا وجهها تحت الظلام الخفيف
وسط شعرها الأسود ، كأنه وجه أختها الكبرى . ولما ارتفع صوتها
يجيب المنادى بأن أبي قد سبقك بالخروج ، أدرك راضى أن موسيقا صوت
هذه لم يفسدها حتى الآن شيء من الكبرياء الذي أفسد نبرات أختها ،
ولم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يتحسس طريقة في الظلام راجعا أدراجه .

كان يلقي على محطة القاهرة وهو في نافذة القطار في الصباح الباكر
نظرة عاتبة حزينة فيها حب وفيها دموع . ولكن المدينة بدت وكأنها
مشغولة عنه فلم تبادله العواطف ولم تأبه لرحيله حتى ذكر ذلك الوداع
الجاف الحشن الذي كان بينه وبينها يوم جلسا على القنطرة المقوسة . وجعل
القطار يتحرك بعد أن تلاشى بخار صفارته في الغلالة الضبابية التي نشرها
الفجر في سماء المدينة ولم يكن راضى متبينا كل ما تقع عليه عيناه لأن سيحيا
من السموع برق على مقلتيه ! ! ومن العجيب أننا نسحو بالدمعة على كل
وطن نقارقه وكل أرض نرحل عنها فننكي فيها أيام السعادة كما ننكي فيها
أيام الشقاء ! !

كان متاعه خفيفا ولو أن همه كان جد ثقیل . ومعظم متاعه حزم من
كتب ومجلات جعلها ذخيرة للمدة التي سيقضيها في منفاه . وكان القطار

مجدداً في سيره به نحو الشمال الشرقي إلى أحد موانئ البحر الأحمر . فلما وصل إلى هناك بعد ساعات استأنف حمل همه ومتاعه إلى الشاطئ لتشوق به لجة البحر إحدى بواخر المصلحة . . . مصلحة الموانئ والمناظر التي أصبح راضى أحد الموظفين التابعين لها والساهرين على الخدمة العامة في إحدى مناراتها البعيدة عن شواطئ البحر .

» عزيزى سعيد :

وددت أن أكتب إليك منذ الوهلة الأولى حين تحركت بي الباخرة الصغيرة نحو مقر عملي الجديد ولكنى آثرت أن أتريث حتى أرى ماذا هنالك ثم أصف لك كل ما حولي لا تعجب يا أخى إن رأيت في عباراتي شيئاً من الحياة . . . لا تعجب أبداً فاني أحسست منذ رأيت هذا العالم المائي أن غلافاً كثيفاً بدأ ينفذ من حول قلبي وأنى إن تكلمت فاني سأجيد وإن كتبت فاني سأفيد . أصبحت أشبه شيء بالثاكلة أنطقتها الفجيعة فعجب من بلاغة قولها الشعراء .

كان استقبالي رائعاً جداً منذ اللحظة التي نخلت قدمي فيها عن الأرض ، فقد أحس البحر أني صرت من أبنائه فقابلني بحماسة حارة فزعت منها وخفت أن أكون من ضحاياها . خيل إلى أنه عملاق عظيم يريد أن يقبل خلقاً ضعيفاً فهو عرضة لأن تخنقه القبة ! ! ثم جئت يا أخى أذكر آلامي التي خلفتها على الأرض وأنظر إليها جيداً وأدمن إليها النظر فلا أراها إلا حقيرة صغيرة لأنني أنظر إليها من فوق جبل عظيم . هذا العالم الذي سأعيش فوق أديمه ليس للضعفاء حساب فيه لأن كل شيء فيه قوى ، وأنتم على الأرض يا صديقي قد تشفقون على الضعيف

فتمتركونه يحس بضعفه ويحيا منعصا به ، أما عندنا فإنه يطوى مرة واحدة حيث يهوى إلى الأعماق .

لا أريد أن أسمك بأفكار سقيمة ربما سخرتم منها — أهل الأرض ، وربما اتهمتنى بأن بقايا من الألم الذى ارتحلت به بل ومن أجله ، قد أملت على شيئا مما أخطه إليك ، ولذلك سأحدثك عن حياتى ، وأقصد الحياة التى تقابل عندكم السير فى الطرقات ، والسعى فى الأرض والتطلع أحيانا إلى السماء .

لقد انقطعت العلاقات بينى وبين اليابسة من ثلاثة أيام ، ومنذ ذلك التاريخ أحسست بأننى أحتقر الأرض . . . أنظر إليها أنا بعين خيالى ، كما تنظر أنت إلى كرة صغيرة من الطين تصنعها بيديك ! ! وحتى الباخرة التى أسامتنى إلى هذا المكان ، كنت أنظر إليها وهى راجعة نظرة فيها كثير من الرثاء .

إننا هنا من الأغلبية . . . ألم تر أن الله جعل الماء ثلاثة الأرباع ، وجعل الطين ربعا واحدا . أنتم من الطين وتمشون على الطين ، أما نحن فإننا نحيا على الماء تحت السماء ، كأننا نعيش فى جوف كرة مفرغة من الزجاج الصافى .

هل تستطيع الذكريات التى لم يحن الوقت بعد لأن تفقد جدتها ، أن تعبر إلى وأن تناوشنى ؟ ! إننى أخشى عليها أن تتحطم على شعاب المرجان المنتشرة فوضى فى هذه المنطقة والتى يغطى بعضها الطحلب . فى هذه المنارة أستطيع ألا أحزن وربما قدرت على التفكير فى كل ما يسرنى . . . سأفكر

فى كل قوى لأن موسيقا البحر قوية دائما وبخاصة فى هذه الشهور .

فقدنا التعاون على رقعة الأرض فألفيناه هنا على رقعة الماء . فنحن خمسة من الموظفين أكبرنا مأمور المنارة وأصغرنا الخادم ولكننا كلنا خدام ليس هنالك فيما يبدو لى رئيس ومرءوس ولا سيد ومسود فلماذا ننسى كبرياءنا وغرورنا أحيانا ، لماذا ؟ إننى أسألك ! !

لم آس على شىء منذ صعدت قمة البرج قدر ما أسيت على أننى لم أخلق شاعرا . الكون من حولنا مقطوعة شعرية تنشدها أفواه الملائكة فلو أننا تبادلنا الأماكن يا صديقى لقلت أنت من الأشعار ما تحلم العذارى بكلماته وهن وراء أستار المخادع .

ولكنى أرى الأحداث ترمى بنا جزافا وتعاملنا بطريقة لا تحلو من السخرية حين تيسر لمبيض الشيطان بدل « فرشاته » الضخمة وقصعته الكبيرة « صندوقا » و « ريشة » من التى تستعمل فى رسم اللوحات الفنية . رئيسنا المأمور رجل طيب قال عنه الذين عرفوه قبلى : إنه طويل الصمت لا يمل السكوت ، وقيل أيضا : إنه تزوج ولكن عش الزوجية خنقة ففر منه يطلب الهواء الطلق ، ولم يزد على هذا الذى قاله فنقل عنه ، وهو يقضى أوقات النهار ومعظم أوقات الليل قارئاً ، ترى يا أخى هل لدغته امرأة كالتى لدغتنى ؟ وهل يعمل على نسيانها كما أعمل أنا الآخر ؟ على أن كل الأشياء عندنا تسارع إلى التلف ما لم نحفظها فى الثلاجة ، وليس عندنا ثلاجة ، نحفظ فيها الذكريات ، فعسى أن ننسى ! ! وسلاماً على ساكنى الأرض ! !

خيل إلى سعيد بعد أن قرأ هذه الرسالة أن صديقه راضى إنما سكن
المرنج فلم تعد هناك علاقة بينه وبين هذا العالم . ثم ابتسم بعد أن فرغ
منها ابتسامة فيها أسف وفيها رثاء ولسكنه عاد فذكر أن حال راضى
خير من حاله لأن « المزيج الأول من ليل شبابه » قد ولى كما يقول
ولم يخط في سبيل الاستقرار خطوة عملية فعالة . يقول عن نفسه إنه شاعر
ويحلم بأنه سيكون في يوم من الأيام صحفياً ناجحاً ، تقدم مقالاته صباح كل
يوم مع الفطور مثلاً نوعاً من الغذاء يجب أن يتناوله الناس مع الشروق ،
ولكنه حتى الآن يقول الشعر لنفسه ولأصدقائه ولا يكاد الناس يحسون
أنه موجود !!

وحق الدراسة الثانوية لم يكملها على الوضع العادى الذى يناله أقل
التلاميذ حظاً من الذكاء ومن الثروة . لكنه شعلة من العواطف وهو
أشد الناس حساسية بما يضطرم بين جوانحه ، لقد كان يحس أن فى داخله
حرارة ربما قيض لها أن تتحول إلى مشعل . . . مشعل عظيم . . .
يضئ للأجيال !!

وقد يرتاح سعيد لهذه الفكرة ، ولكن إلى ثوان عدة ، ثم ينفجر
بعدها متهقها ساخراً من نفسه ، وينزوى فى استخفاء ذليل كأن عيون
الأجيال التى يريد أن يضئ لها قد تجمهرت عليه لترميه بالغباوة وبالجنون .
ولم يبد كوكب سعد واحد فى حياة هؤلاء الناس طوال ذلك العام ،
كأن المقادير قد ربطت بينهم جميعاً برباط لا يرى ولا يحس :
دربة فى طنطا كثيرة التفكير فى أمر أسرتها وبخاصة أبوها الذى

تنهش منه الليالى القطعة بعد القطعة على الرغم من المعونة المالية الشهرية
التي يستهلك هو معظمها فى غذاء ودواء ، ولولا العزاء والساوان اللذان
تقدمهما عايدة وعفيفة فى كل ليلة للمجموع لاستحالت حياة الفتاة إلى سمر
لا نطاق : فيحدث مرة أن تستقيظ عفيفة من نومها فى سكون الليل على
صوت النافذة وهى تفتح فتتناعس حتى يتهيا لها أن ترى زميلتها عايدة
تطل فى الظلام نحو الشرق ثم تخرج مصباحا كهربائيا من جيبها وتبدأ
فى إرسال إشارات ضوئية فلا تلبث حتى ترى ضوءا آخر يتراقص فى إحدى
النوافذ على بعد . كأن اللقاء بين هذين الحبيبين لم يكفهما للتخفف مما
بهما فلجآ إلى هذا العمل .

ولم تصبر عفيفة التى حرمت هذه الفاكهة على ما رأت زميلتها تفعله ،
فشارت بها وعدت هذا طيشا وتطرفا يسىء إلى سمعة المجموع ، وعلا
شجارها حتى سمعه من فى الغرفة الأخرى ، ثم اجتمعن أربعتهن ، وفض
الخلاف ولكن بشكل مضحك .

على أن هذا التزم الذى أبدته عفيفة لم يكن قادراً على تغيير حالها
فظلت كما كانت تلفق كل مساء حكاية مغرم هام بها فى شبابها حتى كانت
سببا لفشله فى الدراسة . وربما بكت عفيفة لمثل هذه الذكرى فتلمع السموع
وراء منظارها السميك كما تلمع حبات المطر على زجاج النوافذ ، بل وربما
عزت سوء بختها مع بعض الرجال الآن إلى التجنى والتدلل والظلم والمهجر
من غير سبب لكثير من الأحباب فى عصرها الحالى . يحدث هذا فتضحك
الآنسات مرحا أو يكيبن حسرة ، أو يفعل بعضهم هذا ويفعل بعضهم

ذلك ، لكن الوقت كان يستهلك ويمر بسرعة على كل حال وربما نسيت.
الحزينة منهم أحزانها .

هذا هو شأن درية في ذلك العام المنصرم ، أما راضى فقد جعلت.
رسائله إلى سعيد تأخذ في كل مرة طابعا غير الطابع الذى فات ، كأنما
كان يكتب وهو تحت سلطان مخدر أخذ يتقلص ظل سلطانه عن رأس.
ساكن المنارات :

« أخى سعيد :

هل أنت سعيد ؟ أخشى أن يكون نصيبك من إسمك كنصيبى من.
اسمى تماما فتكون « شقيا » كما أنا « ساخط » . . . لا تؤاخذنى.
يا صديقى فقد عدت إلى البحر الأحمر مرة أخرى بعد أن ألفت على شاطئ
البحر الأبيض ثلاثة شهور . وهكذا سأقضى العمر بين بحر أبيض وآخر
أحمر فى ظل حظى الأسود . لكن المنار الذى دخلته فى هذه المرة
يختلف عن المنارين السابقين لأنه قائم على أعمدة منصوبة بين الماء والسماء.
ولتكن هذه المنارات كما تكون فإننى ضجرت .

أستطيع الآن أن أحدثك بلغة البحر . . . لقد أنصت إليه كثيرا وهو
ثرثار لا يكف عن الكلام ، يخاطبني فى كل وقت حتى فى أوقات العمل.
ساعة أشرف عليه من البرج العالى وأرْبض إلى جانب المصباح الذى
يتراقص على الزئبق لأرى ذبذبات الشعاع فى كل صوب .

يخيل إلى فى بعض الأحيان حين تصرخ الريح وتجيها الأمواج ويتدثر
الموظفون بأعطيتهم ثم يعبرون إلى الأرض بأفكارهم فتختفى أصوات البشر

نهائيا في عالمنا الكبير — نخيل إلى في هذه الحالة أننا عما قريب سنتحول إلى نوع من « الترس البشرية » أعني أننا سنكون كسلحفاة البر التي نزلت إلى الماء ، فتنمو لنا زعانف ويكتسى جسدنا بالفوس وتنفس الهواء الدائب وأنا سنكون نواة لمملكة جديدة مائية عظيمة لا ينقصها شيء سوى « حواء » .

وهل تكون حواء الماء خداعة كحواء الطين ، تلك التي قد يتصور الرجل منا في بعض ساعاته حين يطبق عليه الصمت والظلام أن استطاعته أن يركب إليها شعاع الفناء متعلقا به كما يتعلق بالحبل ، ليلقى عليها نظرة ثم يسألها مرة واحدة قائلا لها : أتذكرينى ؟ . . ثم يعود بنفس الطريق . سعيد . سلاما على ساكني الأرض .

« عزيزي سعيد :

سأحاول أن أراك يا صديقي في فرصة قريبة لأنني شديد الحنين إليك بل شديد الحنين إلى القاهرة بالذات ولو أنها قست على قلبي فاعتصرته بقوة لم يخالطها حنان . لقد مللت الوحدة يا سعيد ، لست أقصد الوحدة الخارجية لأن الناس من حولي كثير لكنني أقصد الوحدة الداخلية ، أحس كأني شيء مجوف ، أو كأني في باطن صحراء . . . ليس هنالك عمران ولا أنس ولا نور ، أو كأني منقسم على نفسي فأعلن بعضي الحرب على بعضي الآخر ، ثم كأني هذه الحال لن تنتهي أبدا لئلا تنجلي حتى تظهر يد ما تلوح بغصن من الزيتون ، ولمن تكون هذه اليد ؟ لا بد أن تكون يد امرأة ! !

لا تعجب يا صديقي لأننا قد نذكر لين الأفاعي وننسى سمها ، وهكذا

نقضى العمر ، تغرينا واحدة بواحدة حتى نسلم أنفسنا لآلى يغلب أيتها
على سمها .

إن مأمور النارة الآن نائم والكتاب مفتوح بين يديه ، وهناك رجل
منا يغسل ثيابه على حين أخذ الخادم يصيد شيئا من السمك . وقد علمتني
هذه الأيام كيف أستغرق في التفكير فأستعيد ساعات حياتى ساعة ساعة
حتى إذا ما بدا على أفقها القريب سحابها الدامى توقفت عن التفكير حتى
لا أشجن وحدتى بالهموم .

هل يقدر الإنسان أن يلتقى يوما ما بأناس نغم عليهم فيقول لهم كلمة
تفتر من حدة النعمة حتى ولو لم يبادلوه الحديث ؟ ! معذرة فإننى خاضع
لقانون البحر ، أعنى لقانون الماء لا التراب ، وأن الحنين عندنا يا صديقى
يشب من أجل الأصدقاء والأعداء على السواء فلا تحزن . وسلاما على
ساكنى الأرض .

ويهبط راضى إلى القاهرة فى ضحا يوم من الأيام فتتنظر إليه غير
آبهة به كذلك .

كان قاصدا إلى بيت أخيه الكبير الذى حماه وحمى طفولته .
وكان شديد الشوق إليه وإلى سعيد ، وكان فى أعماق نفسه شوق آخر
لكنه كان كالجمرة التى يغطيها الرماد .

ثم قضى فى القاهرة بعض ماآرب لم يكن للقلب شأن بها ولا دخل فيها .
إلا إذا استثنينا يوما واحدا خرج راضى فى مسائه وكأن على وجهه بقية
سكر أو آثار نوم . كان يمشى فى الشوارع ساهبا شأن الذى يفتش فى

الزحام عن وجه يعرفه فلا يلقاه . وتمضى عليه ساعة من الزمن يلقي نفسه
في أخرياتها خجاة وبدون تدبير واقفا أمام باب ويده تدقه بجمع قبضها
ليجيبه من في الداخل ثم ينفتح الباب الخشبي المصمت الغليظ عن وجه
غلام في الثامنة من عمره يطل برأسه من الفرجة التي تكون بين المصراعين
ويقول : نعم ياسيدي . . . ماذا تريد . وتلمع عينا الغلام بعجب يجعل
الشاب يتلعثم ويضطرب ، ويبقى كل منهما في موقفه وهما يتبادلان النظر
ثم يتكلم راضى قائلا : إني أريد والدك . . . فرد عليه الغلام بحفوة وثورة :
هل تمزح أيها السيد ؟ إن أبي مات من زمن طويل ! فاستدرك راضى بسرعة
وهو يبتلع ريقه قائلا : معذرة يا بني إني آسف . . . وأقصد أن أقول
والدتك . . . ستعرفني هي حين تراني . ويرتد الباب مقفلا في وجهه بيد
الغلام ولكن راضى لا يزايل مكانه لأنه لم يسمع صوت المترس الحديدي
وهو ينجر بعد الاقفال فأيقن أن أحدا سيعود . وتمضى دقائق تطل بعدها
من بين المصراعين خادمة مدرسة البنات وتحملق في وجه الواقف مستعينة
بالشعاع الخافت الذي يرسله أحد المصابيح في الحارة من وراء زجاجه
المعتم حتى إذا ما عرفت ملامحه ، فغرت فهاها ثم شهقت وهي تدق صدرها
وتقول : أهذا هو أنت . . . ألا زلت تذكر يا بني ؟ . . . تعال معي .
اتبعني .

وما إن جلسا في مكان ملائم حتى شرعت تقول : إن في الدنيا قلوبا
صالحة حتى يومنا هذا ، ظننت يا بني أن الوفاء كان موقوفا على زمننا فلما
انقضى ولى الوفاء . . . ولكنني رأيت . أنت شاب كريم ومن أجل

طيبة نفسك رأيتنى أهتم بأخبارها من أجل أنك مهتم بها ، ليتك بكرت
فى حضورك يومين اثنين ، كانت هنا ثم رجعت طنطا . . أبوها مريض ،
ليس مريضا بالمعنى الذى يؤذن بالخطر لكنه كائنما كان منتظرا أن يكون
لابنته مرتب ثم يهدم كما يهدم البناء القديم . لماذا لا تزوجها ما دمت
تحبها ؟ لكنها على كل حال تسعى لتعود إلى القاهرة . . . هل تنوى أن
تخطبها . . . آه . . . أشكر لك هذه الهدية الجميلة ، ولكن لماذا تكلف
نفسك ؟ ليتنى أستطيع أن أقول لها عنك شيئا ! ! فصاح فيها بصوت
"مكتوم : احذرى . . . أرجوك فاتنى سأنساها . فأدارت المرأة وجهها
نحو أحد الحيطان لتخفى عنه بسمه ذات مغزى .

كان مسكن درية فى القاهرة فى هذه الليلة غارقا فى صمت وسكون
لأن معنوية مخيمر أفندى كانت سيئة وبدأ يفكر فى الموت وكانت زوجته
تسمع إليه فى ضجر وتشاؤم ثم ترد عليه بما يدعم نفسه النهار . أما القسم
الداخلى فى مدرسة الفنون بطنطا فإنه لم يكن فى هذه الليلة أقل وحشة
ولا أخف صموتا .

لقد غابت إحداهن فصرن ثلاثا من المدرسات فقط ، وكانت الغائبة
من بينهن صغيرة الشأن فى أعينهن لكنهن الليلة تبين حقيقة شخصيتها ،
لأن كثيرا من الأشياء فى الدنيا لا يستطيع أن يخبرنا بقيمتها إزاءنا إلا وهو
بعيد عنا ، أما وهو قريب منا فإنه لا يستطيع أن يفصح فنستصغر شأنه .
وهكذا أحسسن أن عفيفة كانت شيئا مهما ، لأن وحشة وضمتا ألفت
كاملها على المكان إلى عدة ساعات من الليلة الأولى فأكبت درية على

طارز تعمله ووضعت نجاح يدها على جنبها الأيمن حيث موضع الألم في
كبدها فترة تمددت بعدها في الفراش دون أن تنام . أما عابدة فقد كانت
تعبث بمصباح الجيب ساعة وتعود إلى قصة غرام لتقرأ فيها ساعة أخرى .
وكأنما كان ثقل عفيفة بداية لانفراط عقد الأزهار هذا الذى يجمعه
القسم الداخلى فى مدرسة طنطا ، فلم تمض شهور أخر حتى أخطرت المدرسة
بنقل الأنسة نجاح إلى إحدى مدن الوجه البحرى كذلك ، وقد كانت
فى الليلة الأخيرة لها بين زميلاتهما كثيرة الدمع زائدة الشحوب . على أن درية
كانت دامعة القلب شاحبة النفس لتبدل الأحوال من حولها لأن الزميلة
الجديدة التى حلت محل عفيفة قضت الأقدار بأن تجعلها من اللأى يفضلن
فى الحياة طريقة عابدة ، ثم قد تقضى الأقدار مرة أخرى بأن تكون
خليفة نجاح من هذا الطراز كذلك ، وعندئذ لا يعلم إلا الله كيف يكون
الجحيم الذى ستحيا فيه درية .

وقد وقع الذى خافت منه وكان هذا بدء اضطهاد لنفسها المتكبرة
فى العربة والوحدة . وكتبت إلى أبيها تصف له هذه المتاعب وتستحثه على
أن يحشد همته وواسطته حتى يستمع لها أولو الأمر ولكن ردود أبيها
كانت تضاعف آلامها وتثقل قلبها بالأحزان :

« إننى يا بنيتى رجل مريض ولكننى لأستطيع أن أتناسى ماتطلبين .
وجدت ناسا كثيرين يتزاحمون على باب كبيرة المفتشات ، وكان طلبنا واحدا
وقد ثارت السيدة فى وجهى قائلة : كلنا نريد أن نعيش فى القاهرة ، إذن
فلنحرق الريف !! وأعقبت صرختها هذه بأن رمت بقامها على الأرض .

وجاهدت نفسي حتى منعتها من أن أنهبها إلى شيء ربما كانت غير ذا كبرته ،
هذا الشيء هو أنها امرأة تخاطب رجلا ! !

من أجل عينيك يادرية سألجأ إلى ناس جدد . . . ربما لجأت إلى
القاضي ، وربما لجأت إلى عمك حسن أفندي ليكرم ابن عمه مراد أفندي
فهو يعرف الأستاذ صالح وهو صديق عزيز لمجدي بك الذي يسهر مع إلهامي
بك زوج السيدة المفتشة . ويقولون أيضا : إن الساعي الذي يجلس على
الكرسي أمام باب كبيرة المفتشات قريب لأحد المحضرين إخواننا في محكمة
السيدة زينب فعسى أن يوفقنا الله .

أرجوك يادرية أن تزيدى المبلغ الشهرى هذه المرة لأننى أنفق كثيرا
فى السعى لنفلك إلى القاهرة . ولازلت أدعوك بالسعادة . . . »

كانت درية تحس بغربة مزدوجة بين زميلاتها الجديديات ، لم يكن بينها
وبينهن انسجام فشعرت بوطأة الوحدة لذلك كانت تعتمد إلى أن تخرج
وحدها بالطبع للنزهة فى شوارع طنطا التى تصل ما بين الريف والمدينة .
وراءها ذات يوم أنها سمعت هامسا يهتف وراءها بحديث غزل ونجوى
فلما التفتت إليه ألفتته حبيب عايدة ذا المصباح الكهربائى الليلى الذى
يسهر به أمام النافذة وصاحب الشباب الذى تموهه تفاهة لا تدعو إلى
الإعجاب ولا إلى الاحترام . كان شبابه من نوع ذلك الطلاء الذهبى الكاذب
الذى يبرق على الحلى الرخيص الزائف .

لقد لقيها مرة هى وعائدة أيام لم يكن بينهما خلاف ، ولعله أعجب
بدرية أو لعله لم يعد معجبا بعائدة فقد يكون من طرازها المحب للتغيير
للتعلق بكل من يصادفه حتى كأن قلبه من المرافق العامة .

وردته الآنسة ردا جميلا لكنه كان مصرا فلم يرتد ، فقست عليه شيئا ما حين قالت له : إنك صديق صديقتى وليس من الوفاء أن نخدش أحدا هذه الصداقة . فحاد عنها الفتى ، ثم جعل يراقبها ويعاودها مرة بعد مرة كأن حديثها المترن وهيئتها الوقور ووفاءها للزميلة أشعلت كلها فى قلب هذا الشاب نار حب حقيقية ، ولم يكف عن إلحاحه حتى رأتهما عابدة فى أصيل أحد الأيام ولم تعد كلمة من كلمات درية تنفذ إلى سمع زميلتها فتقبل عذرا أو شفاعاة ، ثم كانت هذه الحادثة بمثابة الخطب الجزل تلقى به على النار المتأججة حتى أصبح القسم الداخلى بالنسبة إلى درية سجنا كئيبا تمرح من حولها فيه الشياطين .

وأخذت خطاباتها إلى القاهرة تزيد وتكثر وتفيض بالهم والقلق والأحزان وأخذت الردود التى تتلقاها تأرجحها بين اليأس والرجاء وتحمل إليها فى كل مرة اسما جديدا من أسماء الوسطاء ، حتى ضاقت نفسها فسافرت لترى الأسرة ثم عادت إلى طنطا بعد يومين .

لكن مقامها لم يطل فيها . لم تمض أيام ثلاثة حتى كانت تحمل عدة حقائب بينها حقيبة أبيها ، وكانت تنظر إليها وهى على كتف أحد الحمالين فى ارياب وشك ، على الرغم من أنها كانت متأكدة من سلامة قفائها .

كانت تذكر يوم دخلت بها هذه المدينة منذ عامين على التقريب ، يوم لفظت محتوياتها على سلم هذا النفق الذى تصعد الآن درجاته متخذة طريقها إلى العاصمة ، وكأنما أرادت هذه الحقيقة أن تبشرها بمقام غير سعيد فهاهى ذى خارجة من طنطا مهيضة الجناح مكسورة الخاطر .

لم تطلق البقاء بين هؤلاء الآنسات الثلاث اللأى يبذلن لها كل ليلة
كيدا جديدا ، وختمن هذا البذل الكريم بأن فتحت عايده صوان ملابسها
فى غيبتها وطرزت لها ملابسها بحروق صغيرة نشرتها فى كل الملابس حتى
أصبحت درية لأعلاك إلا الثوبين اللذين صجباها إلى القاهرة .
كان القطار المسافر نحو الجنوب يسترجع أنفاسه بعد صفرتة الأخيرة
اللى ينذر بها المسافرين ، ودرية تلقى على المدينة نظرة رطبها اللمع ، فيها
أسى وأسف لم يشبهها شئ من الذكريات الجميلة ا ا

أصبحت سعيدة في محل الأزياء الكبير الذى يقوم فى أهم شوارع القاهرة . أصبحت سعيدة جدا به ، فلا وساطة ولا شفعاء ، ولا حب ولا دسائس . ثم هى بعد ذلك كله تراقب أحوال أهلها عن كثب وتتعرف إلى كثير من كرائم السيدات وتطالع وجوها جديدة فى كل يوم ، وتعيش فى العاصمة الكبرى أحب المدائن إلى النفوس .

كانت حياتها ندية خصبة ليس فيها شيء جاف إلا منطقة القاب ، وكانت تفكر فى الماضى وتتمنى لو أنه عاد ، وقد عن لها فى بعض أيام الآحاد أن تذهب إلى حديقة من حدائق العاصمة ، ففعلت ، وهناك وقفت على القنطرة المقوسة ثم أغمضت عينها وغابت قليلا عن الوجود ، لقد صنعت لنفسها هذه السكرة الخفيفة القصيرة الحلوة حين تخيلت أن شعاع

الشمس الغاربة يقع على خدنها وأن رساما على مقربة منها يجمع ألوانه
وألوانه وأن موسيقيا صغيرا ناشئا يجلس هنالك على العشب وأنه يعزف
لحنا حزينا يهديه إلى قلبين ، وأن زوجا من طيور الماء جعل يتناوش على
شط هذه البحيرة القريبة . ثم فتحت عينها ! !

على أن خادمة مدرسة البنات في اتجاه بيتها كانت كثيرا ما تلقاها
وكثيرا ما تحيها لتنهيها إلى وجودها ، فترى درية في عينها شيئا ولكنها
تهمل هذا الحاطر . ثم هيأت الأيام فرصة لأن تلقاها يوم دخلت درية
هذه المدرسة مع إحدى أخواتها لشأن من الشؤون التي تعرض للتلاميذ
والتلميذات ، فالتقت وهي خارجة بهذه الخادمة ورأت درية عينها وهما تلمعان
بمعنى ظنته طلبا لنفحة من تلك التي ينفج الموظفون بها خدعهم ، فتوقفت
عن السير ومدت إليها يدها في الخفاء . وكأما كان هذا العمل سببا في أن
تسبجت المرأة فجعلت تقول :

شكرا يا سيدتي . . . لم يحب ظني فيك فأنت طيبة القلب ، ولقد كان
هو طيبا دائما معي . فشجب وجه الفتاة واختلجت شفقتها ولكنها لم تقل
شيئا ، وهمت بأن تستأنف سيرها لكن خواطرها قيدتها حيث كانت واقفة
وأحست كأن رائحة من الماضي تهب على أنفها بعنف ، ثم ذكرت شيئا
قديما : لقد كان المسكين يراقبها من أحد هذه النوافذ . . . ثم رفعت
كفها من على جبينها وقالت كأنما نفقت عن نفسها حتما : عمن تتكلمين
يا خالتي ؟ ! من هو ذلك الطيب القلب ؟ ! فأجابت : عنه هو . . . عن
الذي تقصدينه . . . نحن نتحدث عن رجل واحد . . . لقد زارني

يا سيدنى منذ أمد قريب ، لكنك كنت قد رجعت إلى طنطا ، كنت
أظن أن جيلنا نحن قد دفن الإخلاص فلن نرى فى شيخوختنا قلوبا شابة
مخالصة فى حبها ، ولكننى . . . رأيت راضى .

وأطرقت الفتاة كأنما ثقلت على رأسها الذكري ثم عادت فهمست :
لكن . . . لا أظن أن أحدا يعرف مكانه ، فسارعت السيدة تجيها
كأنها نخور بأن تعرف : أنا وحدى التى أعرف . — آه . — إنه فى . . .
(ووضعت يدها على جبينها لتتذكر) فى البحر الأحمر . . . ينظر إلى السفن
هذا مبلغ علمى يا فتاتى . . . أسعدك الله .

كانت درية تظن بعد أن تلقت هذه الأخبار أنها ستقوم حيال راضى
بعمل ما ولكنها نسيت أو تناست . وغابت عن ماضيها مرة أخرى فى عملها
اليومى الكثير وحديث من تلقى من كرائم السيدات . ولعل زوجة
الأستاذ رضوان كانت أحب العقيلات إلى قلبها ، ومن ذا يكون الأستاذ
رضوان :

موسيقى كبير ولده الجيل الحالى ، حبا مع الموسيقى منذ خمسين عاما
ثم شب فوهبها شبابه وعمره حتى كان رائدها للفنانين جميعا من أبناء هذا
الجيل . طويل ناحل كأنه نعمة هادئة ممدودة ، يطالعك منه وجه ناصع
مستطيل ملأت التجاعيد صفحته وقد يروك أو يؤمك انتفاخ خفيف
فى أسفل العينين تظنه فى أول الأمر أمرا من آثار السهر ولكنك إذا
أدمنت إليه النظر عرفت أنه قطعة من وجهه نجمت فيه بعد أن تخطى
لأربعين بقليل . وعلى رأسه تاجان أحدهما ناصيته الصلعاء الصافية الناصعة

التي كأنها امتداد جميل لجبينه الواضح ووجهه البشوش ، وأما تاجه الثاني فشعر غزير في بقية الرأس لم يشتعل فيه الشيب وإنما أحرقه إحراقا ، حتى بدا بياضا خالصا كأنه رغوة الصابون . ولم يكتب الله لهذا السيد أن ينجب من زوجته الأولى التي بكأها بكل ألقانه وهو في الخامسة والأربعين من عمره ، ثم قست عليه الوحدة وعضت الوحشة قلبه الذي لم يبق الزمن في جسم الأمستأعضوا طريا إلا هو . فلما وقع له ذلك فتش عن زوجة أراد أن يجعل منها مصباحا يلقي على حجراته شيئا من النور حتى ولو كان في نافذتها ينير في الخارج فلا يخض عشه منه إلا شيء قليل ، لا يعدو أن يكون أشعة خلفية تند عن هذا المصباح . حتى هذا كان يرضيه لأنه لا يستطيع أن يؤلف ألقانه في الظلام الدامس .

ولم تبخل عليه المقادير بهذه الزوجة فقد أعطته إياها ، وكان البون بين عمرها كبيرا ولكنها كانت كريمة النفس لا يؤلمها الصيام الطويل ، بل كأنها ألهمت أنها موكلة بهذه الشعلة ساهرة على توهجها لتمدها بالزيت كلما توج ذروتها الدبول .

كانت هذه السيدة تزور كثيرا محل الأزياء الكبير الذي تعمل فيه درية ، وكانت فنانة في انتقاء الملابس واقتنائها كما أن الأستاذ رضوان فنان في تأليف الألقان . وربطت الحوادث بين السيدة والفتاة ودعته السيدة لزيارتها في البيت لتؤدي لها بعض الخدمات المتعلقة بالملابس .

كانت درية مع السيدة في إحدى حجرات بيتها تطري لها سمعة زوجها عند الجمهور وتصف لها أثر موسيقاه على نفوس الناس ، وكان طبعها أن

تبتسم الزوجة من أجل ذلك وتشكر . ثم ما لبثت أن قطعت على درية حديثها قائلة لها : إننى أقضى معظم ساعات النهار مستمعة إلى هذا الحديث من زوجى حتى يخل إلى أننى سأستحيل فى يوم من الأيام إلى نعمة ناشزة تتطير فى الأثير فتستريح من الدنيا ، و . . .

وانفتح الباب فجأة بعد نقرة استئذان خفيفة ودخل الأستاذ فى مبادله خيا وتعرف سريعا على الفتاة وقالت زوجته له إنها من عشاق موسيقاه فابتسم واتجه إلى زوجته قائلا : جئت الآن لأزف إليك بشرى التوفيق الذى هبط على به الوحى فجأة حتى أكملت اللحن الذى كنت متعثرا فيه . . . سترقص له قلوب الملايين يا حسنائى الفاتنة . ثم تركهما الأستاذ إلى حجرة وحيه . وبدأت زوجته تكمل حديثها الذى انقطع : إن زوجات الفنانين يا آنسة لا يكدن ينلن من حقوقهن قسطا معقولا لأن رجالهن يعيشون دائما مع شياطينهم . . . والمرأة شيطان . فلا يجتمع شيطانان فى ققم واحد وتضاحكن . أحب الساعات إلى نفسه هى الساعة التى يبتنى فيها أمانيه ثم هو لا يفر عن ذكر أسماء بعينها من الشرق والغرب : عبده الحمولى . بهوفن . موزار . سمفونيات . وأشياء أخرى لا أكاد أعرف معناها . لكننى مكلفة بأن أيسر ه سبيل الفن فلا بد أن أسمع إليه .

فكانت درية فى إطراق وحياء : ليتنى أعيش مع فنان ! فسألتها : أتحبين لموسيقا . فأجابت : والغناء يا سيدتى . مدى إلى يدك الكريمة . . . ولم تمض شهور حتى وضعت درية قدما ثابتة على أول درجة من سلم الفن -

وهكذا يسرت لها الأقدار أن تنسى (راضى) مرة أخرى . . .

ثم تتدارك الليالى وتتتابع الأيام وتأخذ شئون درية فى التطور بسرعة فلم يعد الشارع ذو البوابة ولا الحى الوطنى العتيق يناسبانها الآن فارتحلت الأسرة كلها عنه إلى حى آخر متوسط . وقد نسيت درية أن تلقى نظرة على المدرسة المواجهة وأن تودع خادماتها لأن الحياة بدأت ترحب بها ، وتبسط لها ذراعها فأنسها كل ما حولها .

أما راضى فإن شأنه لم يتغير . كان لا يزال بين المنارات متنقلا من البحر إلى الساحل ومن الساحل إلى البحر . ودفعه الحنين منذ وقت بعيد فسافر إلى القاهرة ولقى أخاه . ونزل مع أسرة أخيه لشراء بعض الملابس والحاجات فدفعتهم المصادفة إلى محل الأزياء المعهود وتقابلت عيون الخبيين القديمين هناك ساعة كانت الأسرة تهم بالخروج .

ثم كانت نظرة خاطفة لم يهمل راضى بإردافها بأخرى حتى سمع أخاه يناديه مستعجلا وحتى كانت درية تزايل مكانها مستجيبة لنداء إحدى السيدات . ثم كان سفر واستؤنف البعد بينهما مرة أخرى حتى غلبه الحنين إلى القاهرة فجاء إلى المدينة وعاد إلى محل الأزياء يفتش عن صاحبة الوجه الذى يشبه وجهها ، فلما لم يجده كذب نظره وشك فيما وقع له فاتخذ طريقه إلى مدرسة البنات ، فلما طرق الباب فتحت له الخادمة بنفسها ولولا الظلام الذى كان يسود الفناء لقرأ فى عينيها كل شيء ، لكنه استمع بعد قليل إليها وهى تقول :

لقد تركوا الحى يا بنى . وأصبحت لا أعرف من أمرهم شيئا .

كانت تسكلمه فى مكان غير باهر النور فخلل إليه أنها شديدة الشحوب
ثم أخذت ظلال الحنان التى تبدو دائما على وجهها تغيب قليلا قليلا فاكتمسى
وجهها بالقسوة ثم قالت له : ما بك يا بنى ؟ . . . أليس فى الدنيا نساء
سوى هذه البنية ؟ . . . من المحال أن تعبد المرأة رجلا يعبدها . هأنذا
قد أصبحت لا أعرف عنهم شيئا فاذهب لتقتل نفسك . . .

وظل صدى هذه العبارات يطن فى أذنيه طول الطريق وهو ذاهب
إلى صديقه سعيد ليرى ما حاله فألفاه هو هو ولم يتغير . وتحديثا ساعة من
الزمن ختم راضى بعدها الحديث بقوله :

ستبقى طول حياتك شاعرا مغمورا ينقش خواطر الليل على بياض
الجدار القريب منه . وصحفا مبتدئا حتى تموت . وسأبقى أنا مشرفا على
الماء طول حياتى ، لا تربطنى علاقة بقلب واحد على أديم الأرض .

ثم استأنف كل منهما الحياة بهذه الخطا الوئيدة . أما درية فقد كانت
مركبة الحظ تجذبها فى طريق السعادة . بدأ اسمها يلمع وكثر رائدوها
وعارفوها حتى الأستاذ رضوان نفسه جعل يعدها إحدى المفاخر التى
أبرزها إلى الوجود .

وجرى الرخاء فى حياة أسرتهما وجعلت الأم تنظر إلى بنتها نظرة فيها
رضا وحب ودعاء لأنها كانت تخشى عليها الخبثاء من الرجال الذين يلتفون
حول كل فتاة . لكن كبرياء درية كانت وقاية لها مما خافته عليها أمها .
ولم يكن شىء ينغص على الفتاة حياتها إلا الماضى ، ثم استطاعت أن تصفى
حسابه وأن تدلف به إلى المقبرة بعد أن تعرفت على منصور . أما عم مخيمر

فإن الله لم يكتب له أن يشارك طويلاً في هذا الربيع المخصب لأنه قضى نحبه .
عقب إشراق شمس التوفيق على فتاته بوقت قصير لكنه نال بعد مماته شيئاً :
لم يكن يحلم به وهو حي ، ذلك أن ثلثة من رجال الفن مشوا وراءه
جثمانه وهو في طريقه إلى المستقر الأخير .

وهذا هو بيتها الخلوى الجديد الصغير :

يبدو كأن مالكة القديم كان شاعراً لأنه أنشأ حديقة وجعل فيها
بيتاً . بل يخيل إليك إذا جئت خلال هذه الجنة أن بعض الأشجار فيها
أطول عمراً من هذا البناء الذي لا يزيد على حجرات ثلاث يصل بينها
وبين الباب طريق مشجر كأنهم جوفوه بين الأغصان .

ولم يكن معها في هذا المسكن سوى عدد قليل من الناس . كانت هي
وخادمة كبيرة و غلام يقوم بحاجتها ، وبواب نوبي وكلب كبير . كان كل
شيء من حولها يوقد المتعة ويوقظ الرغبة في التملئ بالحياة . . . همسات
النسيم يسرى في ظلمة الليل بين تلافيف الشجر فيقلق مضجع الأغصان
لحظة تستسلم بعدها للسكون من جديد .

والنيل المتطرح الهاديء الذي تنعكس عليه أضواء المصابيح الوانية والذي
يفصل بين درية وبين ضوضاء المدينة . وانتفاضة أو اثنتان من طائر أزعجه
طائر ، ثم وصوة يعقبها سكون . ونبحة واحدة من الكلب تحمل البواب
على أن يفتح النافذة المطلة على الحديقة في حجرته لينظر ماذا في الخارج
ثم يقفل المصراع وينام . . . الطبيعة كأنها مستسلمة توحى للقلوب العسرة
بأننا فطرنا على التزاوج وأنه لا بد من الأحباب ، حتى الكائن الكون
يدخر نوعاً من اللذة حرمها على الواحد فلا يجود بها إلا لشكل اثنين !

تلك هي الصورة التي تحلت بها الدنيا في هذه الليلة والتي ظلت درية
تطالعها في صمت وشروء حتى بدت أهدابها ساكتة لا تطرف إلى مدة
غير قصيرة : كانت جالسة إلى معزفها لكنها ظلت جامدة لا تناغيه . اللهم
إلا نعمتين خافتين فيهما قصر وضآلة بخلت بهما بالسكون ، فلم تبدده
حتى بنغمت الموسيقى . ثم جعلت من كفها مسندا لحدها بعد أن ألقت على
أصابعها الماهرة في محادثة البيان ، نظرة قصيرة . ثم سكنت أهدابها وخلت
بين فكرها وبين الخلاء :

ما الماضي ؟ . . . وما الحاضر ؟ . . . وما المستقبل ؟ . . . لم تكن
هي من أناس يشغلهم حاضرهم وكثير من الناس لا يفتنهم الحاضر . أما
المستقبل فقد يلهينا الماضي عن أن نفكر فيه . وبخاصة إذا كان ماضينا غير
واضح الدلالة على حاضرنا . أعني إذا كان مقدمة غير مألوفة للواقع الذي
نعيش فيه . كأن يبشر بالشقاء فنرى السعادة أو يبشر بالسعادة فنرى الشقاء
حينئذ يجرنا الماضي إليه المرة بعد المرة ويأذ لنا أن نفكر فيه .

مرت الأيام . . . نعم مرت الأيام . . . وأصبح أناس كثيرون في ضباب
يقرب أن يكون نسيانا . . . راضى . . . آه (وتبسم كما يبتسم النائمون) !
آه . . . لكأنه إحدى العرائس والدمى التي كنت أحلم بها في الزمان الخالي
نادية . . . لقد انقطعت علاقتي بها بعد تخرجنا بعام واحد . . .
وطنطا . . . لقد كانت عقيمة الأيام سقيمة الساعات . . . ولكن لماذا ؟ .
لولا الاضطهاد والعنف الذي لقيته من بعضهن ما صرت إلى هذا المصير !

نجاح... ترى هل تزال حتى الآن تجمع إعلانات الأدوية . وأنت يا عفيفة :
ترى كيف أنت ؟؟؟ . . .

منصور : الشاب الوسيم ، الطويل المشوق أنبغ تلاميذ الأستاذ رضوان
وأعزهم عليه . المالحن الناجح . . . يبدو لها الليلة أنه سيكون له معها
قصة . وكيف هذا ؟ إنها لا تدري . . . سوى أن الكون كله يؤكد هذا
الخطر ، وكل شيء يوميء بالإيجاب . حتى السكب العظيم الباسط ذراعيه
عند الباب تبرق عيناه بالأحلام تحت النور الذي ينصب عليهما .

والبلبل في القفص المعلق في الشرفة تراه الآن تحت ضوء الشماع
الخارج من الباب وهو ينظر في كل جانب كأنه يحن إلى أليف ، وكأن
الليل أحس سهره وقلقه فوكل به النسيم يهز قفصه ويهدده إلى أن ينام .
وهكذا تراءت لها الأشياء . وهكذا كانت تشعلها وتغريها وتحديثها أن
التوحد ليس له وجود بين قوانين الطبيعة . فأحست كأن يدا تدق باب
قلبها بعنف فسألت من الطارق . . . فأجابها هامس خائف مستحي :
إننى منصور . . . كان يناجها بعينييه منذ زمن بعيد ، منذ عام أو عامين
أو أكثر ، فهي لا تستطيع أن تجزم . منذ هذه المدة وهي ترى كل يوم
حرفاً جديداً من كلمة « الحب » التي كان يبدئها ويعيدها مع الليالي والأيام ،
وهي متغافلة لاهية . تثير الماضي فلا ترى فيه إلا جثا فتعيد ردمه ثم تواجه
الحاضر ، فلا تلبس أن تفسده على نفسها بالخاوف والكبر والتسويق .
ثم فحست أيام شبابها فألقها تتوالت نحو المصير الذي يجرى إليه كل شباب .
تتوالت أيامها وهي لا تزال تزود عنها القلوب وتدفعها ، وتتهم كل الشباب .

بأنهم من نجار الحب . حتى أصبح من الجائز جدا أن تدبل أزهار شبابه
وتصوح دون أن تمتد إليها يد إنسان . إذن فلم خلقت هذه الأزهار ؟

وبرز منصور من الضباب الكثيف الذى تتخبط فيه خواطرها .
وبرزت معه تلك الليلة القريبة . ليلة كانوا عند الأستاذ رضوان الذى
أصبح شيخا فانيا عجوزا محمدا على فراشه دائما . ليس فيه شيء حى إلا المنح
واللسان . هذان وحدهما هما الباقيان ، وكل شيء فيه قد فنى .

كانت فى زيارته ليلتئذ وامتد بهما السمر فى ليل شتاء مظلم بارد
حتى أحست درية فجأة أن قشعريرة تسرى فى بدنهما . قتالبت نفسها
لكنها صارت إلى أسوأ فلم تجد بدا من أن تعلن هذا ، ثم كانت فى سيارتهما
بعد قليل ، وأصر منصور على أن يرافقهما حتى البيت . وكانت المسافة غير
قصيرة . بدأت السيارة تدرج لتقطعها بسرعة على أرض إحدى الضواحي
التي غسلها المطر فانعكست على أديمها أضواء المصابيح ، وكان هو إلى
جوارها ينقل بصره مصعدا فيها مصوبا ، وهى منزوية فى الركن تكاد
القشعريرة تطوى بدنهما طيا . وجعل الموسيقى الصغير كل همه فى هذه
الرحلة أن يحافظ على دثارها الصوفى الثقيل حتى لا ينحسر عن ساقها
ولا قدميها ، وكانت حركاته فى ذلك الظلام الذى لا يبده إلا أنوار
المصابيح الخارجية حين ترف على التوالى فى جوف السيارة رفا سريعا
لا يعين العين على أن ترى شيئا — كانت حركاته تضيء بنفسها لأن فيها ضوءا
وحرارة من الإخلاص والحرص على هذه المريضة التي بدت وكأن سنة
من النوم اتزعجتها من المتاعب فاستسامت لها .

وتمر فترة سكون لا تسمع الآذان فيه إلا حفيف العجلات على أديم الطريق ، فيرى منصور نفسه وهو يهتف باسمها . كان يناديها برفق وحنان نداء لا يفاق ولا يزعج بحيث لا تسمعه إلا إذا كانت يقظة . وتكرر النداء ولكنها لم تجب . فمد يده متحسسا أطراف دثارها حتى أمسك بأهدابه ورفعها إلى فمه ، وجعل يغمره بالقبلات مرة ويمرغ عليه خديه مرة أخرى . أما هي فقد كانت في هذه اللحظة ترسل إليه من بين أهدابها نظرة لاتكاد تحس ، ولكن قلبها بدأ في الخفقان .

ولم تكن الوعكة التي ألمت بها سحابة صيف تنقشع بعد قليل كما تمنى لها عند الباب وهو راجع أدراجه ، وإنما كانت مرضا ألزمها فراشها بضعة أيام . وزحرت حجرة الاستقبال في بيتها في اليوم الثالث بكثير من السائلين . لكنها كانت لا تأذن بالدخول عليها إلا للقليل النادر ، وكان منصور من القلائل الذين دلفوا إلى حجرتها ليطمئن عليها بالعين أو بالقلب .

استمهلت الخادم قليلا بعد أن أمرتها باستدعائه ، فتريثت عند الباب حتى نزلت درية من فراشها ووقفت أمام المرأة لحظة لتسألها عما فعل بها المرض . ثم استأنفت الخادم سيرها واستأنفت درية رقدتها في الفراش . كانت تحس على الرغم من كل شيء أن طلائع الحب في طريقها إليها ، وأن فترة المقاومة التي طال أمدها قد كتب لها أن تنقضى . فأخذت تحرك شفيتها حركات هامسة خفيفة كأنها تناجي طيفا ، أو تردد قولاً تخشى أن تنساه ، وانصت هذه الحاجات المرتعشة بقولها وهي ترد التحية لمنصور :

— مساء سعيد . . . تفضل .

وجلس على كرسى وضع قريبا من فراشها تتهاور وجهه الناصع عدة ألوان فى اللحظة الأولى من اللقاء . وحاول ألا يتكلم حتى يتأكد أن أنفاسه المضطربة لا تقطع الحديث . كانت الفتنة مستلقية على ظهرها تغطى الدثر جسدها كله ، بحيث لا يظهر إلا أعلى العنق . . . تحت الذقن . . . هذه المنطقة الصافية الناصعة التى كأنما صبها الله من بلور . وقد شب صفاءها حتى كاد يتوهج ثروة سوداء من شعرها الغزير حفت بهذا البياض كأنها إطار جميل . وكأنما أخطأت يد المرض التى مستها فمنحتها طاقة سحرية جديدة بذلك الشحوب الخفيف الذى يحجب المرض إلى الأصحاء من الأخباب .

ودخلت الخادم بالقهوة ورشف منصور من فنجانة رشفة خال أن صداها مرتفع جدا تردده الآفاق فى الخارج ، لأن الصمت من حولهم عميق . فألهم من فوره أن هذه الخادم تصلح لأن تكون موضوع حديث يبدد به هذا الصمت .

— يعجبني فى هذه المرأة أن الإخلاص يبدو على وجهها الساذج . . . فابتسمت درية وبدا التساؤل فى عينها حين مالت إليه بوجهها بحيث أصبح خدها على الوسادة ، وتسايلت خصلات شعرها تتابعها فى الحركة . ثم همست قائلة :

— والإخلاص فى الدنيا قليل . . .

فأجابها وهو يضع الفنجان على منضدة قريبة :

— حكم سريع لا يخلو من القسوة

فأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى وتعمدت أن تحول الحديث إلى
وجهة جديدة لأن أماراته بدأت تنم عن غاياته .

— أظن أنني تقدمت تقدما ملموسا . لكن في نومي تخليطا كثيرا
يفسده ويطيل على الليل ومن العجب أنني أحس الآلام وأنا نائمة
أكثر مما أحسها في حالة اليقظة

فبدأ وجهه جامدا مصمتا كأنه لم يفهم ما تعني . وتردد في الشرفة في
هذه اللحظة تغريد هادئ من البلبل السجين ، فندت من المريضة أنه
خفيفة تفلت من الأفواه عادة حين يذكرنا شيء بشيء . ولم تلبث أن
قالت بعدها :

— الأحلام يا أستاذ . . . الأحلام مصدر تعب لى . . .
— كيف يا سيدتى ؟ . . . إنك تبالغين . . . ولمن طابت الحياة . . .
بلا أحلام ؟ . . .

وأطرق إطرارق من قهره لسانه فقال ما لا يرتضيه . أما هي فإنها
أخذت تسبل من أهدابها قليلا قليلا كأنما تريد أن تغمض عينيها على
منظر فائن ثم عادت فنظرت إليه وعلى ملاحظها خيال ابتسامة :

— ربما كان ذلك صحيحا . لكننى أريد أن أقول شيئا خاصا فاستمع
إلى . (ولم تبدأ قصتها فورا كأنما كان يلذ لها أن ترى تعاقب الخواطر
على وجهه الصريح) : لقد ذكرنى تغريد هذا البلبل شيئا كنت ناميته .
رأيت حامما عجيبا . . . رأيت كأننى أنظر إلى هذا القفص فإذا بابه ينفتح
وإذا بالبلبل يطير مغردا مرفرفا في الفضاء تحت أشعة القمر في مساء دافئ .

هاديء . وأحسست ساعتيك كأني مكتوفة أو مذهولة أو غير قادرة على
أن أفعل شيئا . اللهم إلا النظر فلقد ظلمت واقفة حيث كنت واقفة أنظر
إلى خياله حتى غاب عني وحتى لم أعد أرى إلا زرقة السماء ، ونجومها
المنثورة .

رأيت هذا في منامي منذ ليلة أو ليلتين لست أذكر تماما ثم نسيت . . .
ثم ذكرت . وقالت في جزع وقد اتسعت عيناها :

— منصور . . ما تأويل هذا . . إني خائفة . فقال وهو يبتسم :

— خير كثير . (فانتفضت جالسة في فراشها) :

— أتعني ما تقول ؟ . .

— بلا شك .

— زدني إيضا إن كنت تحرص على ألا يتغصني شيء .

— فیهما قولان کما كانوا يقولون

— أحدهما خير و

— ثانيهما خير كذلك (فسرى عنها وبدت كأنها جارحة تنصت)

— الصوت . . . صيت . . والتغريد . . . غناء . والطيران . . رفعة

تستطيعين أن تفهمي من ذلك يا سيدتي أن شهرتك الفنية سيسمعهما سكان
القمر .

— آه . . . شكرا . . شدا ما كنت خائفة . . . فقد بلبل في الأحلام

شيء مزعج . حسن جدا وما الخير الثاني ؟

فابتلع ريقه ونظر إليها متعمدا أن يظهر في عينيه المخاوف ثم جعل

يفرك كفا بأخرى ويقلب ناظريه في كل ماحوله ثم قال :

— أرجو قبل كل شيء أن تعتبرى ما سأقوله الآن ضرباً من التخمين
قد أكون فيه مخطئاً . . .

— وقد تكون مصيباً . . . هيه . . .

— غير أن الخطأ في مثل هذه الأحوال أكثر وأغلب . وإن كان
العلم الحديث يرجع الأحلام . . .

— دعنا من العلم الحديث يا أستاذ . لا تضايقنى فإن فى عينيك ما يندر
بأن فى قولك شيئاً غير محبوب .

لا قدر الله . ألسنت تشاركينى الرأى فى ضرورة معرفة طرف مما قاله
العلم عن الحلم ؟ . .

فقلت فى نظرف ساخر :

— لعلهم بدءوا يلحنون الأحلام . . .

— إذن فاستمعى : يخيل إلى ياسيدتى أن فى طبعك معنى عجيباً . كأنك
فيما يبدو تضعين كثيراً من الفرص عامدة . وبلا مبالاة . . . أقصد أن
أقول : ربما وقع ذلك فى الماضى . . .

(ثم أتجه لها بكل مشاعره وأخذ يضغط حروف كلماته) وربما يكون
فى الحاضر . . . وقد يكون فى المستقبل ! علم ذلك عند الله . . .

ثم انتفض قائماً من مكانه متظاهراً بأنه أزهد الناس فى سماع الرد فمدت
إليه يدها مسامة ولكنها لم تدعه يسترد كفه منها بسرعة . . .

كانت تركض فى تيه من الذكري وتجوس خلال الماضى كأنها مخمورة.
أما نظراتها فى هذه اللحظة فقد كانت مشحونة بلين وأنوثة لم تفض بهما
عينها من قبل .

كأنما كانت تريد أن تقول للرجل الذي لا يزال ينظر إليها : أنا التي
أخلق الفرص . . . هذه عينة من رصيد كبير أدخره حتى الساعة التي
أشاؤها . وعندئذ أقدمه لأي رجل أحببته . ولكن ... ترى من يكون؟
« تلك هي الخواطر التي كانت تنهفت متزاحمة على رأسها ساعة جلست
إلى المعزف في سكون الليل ، فأومأ لها الوجود يؤكده أنه سيكون لها مع
منصور قصة »

obeykandi.com

استمع إلى يا سعيد :

كان ذلك في ليلة عبقرية عجيبة وكنت إذ ذاك في أحد منارات
لبحر الأحمر التي تعلم أنها منعزلة عن الأرض قائمة بين الماء تحت السماء
كأنها قطعة من عالم مجهول .

وكان الوقت صيفا والسماء صافية الأديم تخدمك حتى تخال أن عينيك
أدرتان على أن تستشف ما وراءها . والبحر . . . كان ساجيا هادئ
للجة يوسوس هامسا بين حين وحين ثم يغضى كأنه يحلم . وكنت حينذاك
ن البرج أنظر الدنيا التي ألفناها منذ سنين وأراقب الشمع الطويل
لتذبذب المتراقص الذي يرسله المنار ، وأنا مشغول الخاطر بأشياء لا أستطيع
ن أعرف أيها يحتل من تفكيري المكان الأول .

فهناك زميل عزيز نجّاه المرض عصر ذلك اليوم عقيب أكلة سمك طازج بالطبع ، أحس بعدها بالألم في الجهة اليمنى من بطنه تحت الأضلاع ، ثم بقي ، وانطلاق جعلنا لا نشك في احتياجه إلى عملية جراحية سريعة وإلا . . . فإن الله وحده هو الذى يعلم ماذا سيكون مصير شبابه بعد ساعات . . .

وهناك مذياع مفتوح . . . هل تعجبك هذه المتناقضات يا صديقي ؟ كان هناك مذياع مفتوح لأن زميلنا كان يصرخ فينا كلما هادنه الألم صائحاً أن افتحوا المذياع . . . آه . . . لا تجعلوني أحس أنني دخلت القبور . . . ما لكم صامتين هكذا والبحر صامت ؟ ! ما هذا السكون الموحش ؟ . . . آه . . . صلونا بالدنيا . . . افتحوا المذياع .

وكنت أنا لا أفتر عن الصعود والنزول من المنار وإلى المنار . ألقى على الزميل نظرة ثم أعود لأشغل بهمى الثالث الذى كانت فخواه أن أتصل باللاسلكى مخاطباً من يسمعى . ومراقباً حدوث معجزة على الأفق المائى المتأرجح الرجراج . وأنت تفهم بالطبع أن المعجزة هنا مرادفة لاسم « الباخرة » أيا كان نوعها وراكبوها ولو كانوا من الشياطين . وفى ذلك الجو الغريب الشائى الذى ألفت فيه المقادير بين أنغام الموسيقى واغط البحر وغناء مغنية وصراخ مريض وصوت مستغيث باللاسلكى يرفع عقيرته طالبا النجدة — أعلن المذيع اسم المغنية التى سحرتنا بصوتها . . .

وأمسك راضى عن الحديث برهة ليحمل صديقه على أن يسأل : ومن عسى أن تكون هذه المغنية ؟ .

وفرغ سعيد من بقية النرمس التي كانت باقية أمامه على المنضدة بعد أن
تجرع ثمالة كأسه ثم اتجه إلى صديقه يسأله بهزة من رأسه : من عسى
أن تكون ؟ فقال له وهو مائل عليه ليرمس بالنبا العظيم : إنها هي . . .
هي بعينها . . . هي التي حدثتك عنها قديما . . . هي التي أجلتني عن
الأرض وأسكنتني لجة الماء . . . هي . . . هل عرفتها الآن ؟ فأجابه
مقهقهها : يا سخرية الأقدار . اسمع يا أخى . . . إنها ومثيالاتها جميعا
يقطعن صلتهم بالماضى ويحرصن على ألا يرين من أشباحه شيئا واحدا .
ولو قدر لأحد هذه الأشباح أن يظهر على مسرح حياتهم . . . فالويل له .
فقال وهو يلتقط أنفاسه بعسرة : ماذا تعنى ؟ . فأجابه : الذى أعنيه تماما
هو الذى تفهمه أنت الآن . إنهن يدسن على قلوب كثيرة يخترن وينفين
كما يخلو لهن . وليس لأحد من الناس أن يسألن ما السبب . لا تدعى
أنسى أن أسألك عن مصير زميلك المريض وهل كتبت له النجدة . فأجابه
راضى بأن قال له :

إنه وصف طويل . . . خبرنى أنت أولا عن الصحيفة اليومية التي
وفقت للعمل بها . . . وأحب قبل أن أنسى أن أزف إليك بشرى قرب
عودتى إلى الأرض مرة أخرى . . . إن جاذبيتها شديدة يا سعيد . فسأله :
عن جاذبية من تتحدث ؟ فأجاب مبتسما : عن جاذبية الأرض بالطبع .
سأنتقل إلى عمل أشد سحرا وفننة من عملى الأول . . لقد نسيت الماضى
لأما وسأفكر فى الزواج .

لم يقدر لدرية ومنصور أن يلتقيا بعد الحديث الذى درا بينهما إلا فى

هذه الليلة لكن خواطرها كانت ملتقية على البعد طوال المدة التي لم يترأى فيها ، لأنه تركها مبللة الخاطر نشيطة المهوم تفكر في « الفرص » تفكيراً حقيقياً بعد أن بدأ عمرها يخطو إلى الثلاثين . ثم ذهب الليلة إلى بيتها ليفضى إليها بأنه فرغ من وضع ألحان أغانيها الجديدة . وفتحت له الخادم باب غرفة الاستقبال بعد نقرة خفيفة على الباب فهم منها أن زائراً في الداخل ، ولم يكن يقدر وهو يخطو خطواته الأولى أنه سيرى شخصاً يحمله على التفكير أو يستأثر بانتباهه وخواطره .

وألقي منصور عليها تحية متوددة مؤدبة ردت عليها درية رداً مختصراً لا تقبله النفس بسهولة لولا ابتسامه كانت على شفيتها ساعة الرد . وأغلب الظن أنها كانت مستعارة من الحديث المتبادل بينها وبين الزائر أعنى أنها لم تولد من أجل هذه التحية . وأما الجالس فإنه لم يكثر بالداخل ولم يكلف نفسه عناء في السلام ولا في تغيير جلسته . لأنه كان يعرف قدر نفسه تماماً فلا ينبغي له أن يعمطها حقها . وجلس منصور على أقرب كرسي أحس به ، وجعل ينصت إلى الحديث الذي أخذ صبغة عدها غريبة غير مألوقة . وكانت أولى الكلمات أن سمع درية تقول :

— هو كما قلت تماماً يا كمال بك . فأجابها مبتسماً في زهو شديد .
والسلسلة الذهبية لا تزال في يمينه يديرها حول سبابتها فتلتف ثم يحلها فتتحل .
— لقد ظننت أنك ستخالفني في الرأي . وعجيب أن تلتقي آراؤنا في مثل هذا الموضوع بسهولة .

ثم استحوالت الابتسامه المتألقة على فمه الطري الغض إلى ضحكة ناعمة .

لا يضحكها الرجل ولا تعجب بها المرأة ، أعنى ضحكة فقدت الرجولة ولم تستوف شرائط الأنوثة . فأحس منصور أن حيناً من الدهر طويلاً قد تقضى وهم جالسون ثم جعل يسائل نفسه :

إذا كان بينهما سر فما الذى حملها على أن تأذن لى بالدخول . ولكن أعلها أذنت وهى شاردة اللب أو مشغولة الخاطر . ثم . . . هل فى آداب الناس أن يتكلم اثنان فيومئى ، كل منهما بما يريد و بينهما ثالث غريب نحمن ما يقولان وهو متألم ؟ . . .

وتسبح يريد أن يشعرها بأنه موجود وكأما آتت هذه الحركة ثمرتها رجوة . فالتفتت إليه ثم استرجعت نظرتها وقالت للجالس الأول : أنسىتى كمال بك أن أقدم إليك الأستاذ منصور . . . الموسيقى الملحن . فأجابها كأنه متردد : تشرفنا . واستطردت هى تتحدث وعيناها تفيضان بالتعظيم التحذير : والأستاذ كمال بك نجل حسن بك الجواهرجى المعروف . ال غير محول عينيه عن عينيها : لنا الشرف العظيم . . . (وحنى رأسه لا وهو جالس) . أما كمال بك فقد ظل كما كان غارقاً فى الكرسي متطاعاً ، أعلى فى ترفع واستكبار ويده تعبت بالسلسلة لفا وتقضا حول السبابة فى . ومضت برهة غير طويلة نظر بعدها إلى منصور من جانب عينيه نظر بعد ذلك إلى ساعته وقال : أعتقد أن الوقت قد حان للاستئذان . مض فنهضت تودعه . وألنى الموسيقى أن الضرورة تحتم عليه أن ينهض فى شىء من التثاقل ، وأخذ كمال بك الشاب الوسيم الذى خلع عليه كل ألقاب الشرف يعشى الهويينا على سجادة « الصالون » حتى قطع

المسافة بين مقعده ومقعد درية غير مستعين إلا بالله ، وحتى قرب كثيرا
من مكان منصور . ولما فرغ من تحية المضيقة استدار يحيى ضيفها الثانى
لكنه توقف قليلا وألقى على وجهه نظرة ضيق معها عينية كأنما يفحص
شيئا ، أو كأن الشمس تواجهه ثم قال فى نبرات تحرستها كبرياؤه : كائن
أعرف هذا الوجه ، ويخيل إلى أننى رأيته قبل ذلك . ولم يسكت حتى
يعطيه فرصة يرد فيها بل استدار فى وقفته فأولاه ظهره وأكمل كلامه وهو
يواجه درية : متأسف . . . لأننى نسيت ما قلته يا آنسة . حين ذكرت
أن الأستاذ ممثل . . . لأننى رأيته مرة على خشبة مسرح . . . مسرح . .
منتقل . . . فى أحد الأقاليم . ثم سار نحو الباب فى ببطء شديد يجر وراءه
أذيال « رصيده » وسارت درية خلفه بضع خطوات حيث ودعته عند الممشى
ثم عادت فإذا بالموسيقى لا يزال واقفا حيث كان وعلى الهيئة التى تركته
عليها ساعة كان كمال بك يخاطبه . كان مذهولا من الهجوم الخاطف الذى
لم يسبقه إنذار ولم يكن له مسوغ . ورأته هى على هذه الحال فشحب وجهها
وجلست ثم رجته بعينها أن يهدأ قليلا وأن يجلس . وفعل ، ثم بدأ يقول
بصوت هددته الثورة :

هل تظنين يا سيدتى أن من حق أى إنسان عزيز عليك أن يجرح
كرامة الناس مادام متحصنا بأننا نحترم الذين نحترمهم ؟
فأجابت وهى تنظر إلى فص خاتم ثمين يدل وميضه فى كل ناحية على
جدته وغلائه :

... إن سبب وجوده هو أنه جاء يحمل إلى هذا الخاتم .

فابتسم ابتسامة ذات مدلول :

— هذا حسن . . . ومادمت قد تسكرمت وعرفتني فضله فأرجو أن
تسكرمي مرة أخرى وتعرفيني ذنبي .

وبدأت العاصفة تهب على وجهها هبوبا لا ينحفي على عين . . بدأ وجهها
الخمري المستطيل يلبس أقنعة مختلفة متوالية متعاقبة : منها القاني ومنها
الشاحب ومنها الأبيض الثلجي ومنها الأغبر المربد . أما عيناها فقد استحالتا
إلى نرجستين واسعتين فيهما جمود واستدارة . ثم تسكمت فغابت درية
وحلت مكانها فتاة جديدة :

— ماذا تريد أن تقول يا أستاذ . . . لقد خلقتني المقادير وتخرجت
في بيت موسيقى كبير شريف تعرف الدنيا كلها سمعته . . . إن الكفوف
التي حملتني إلى مركبة الفن كلها نظيفة . . . وقد دخلت دنيا الغناء من
باب ليس فيه غموض ولا خفاء ولا ريبية ثم أن الموقف بيني وبين هذا
الشاب لا يزيد على أنني شارية وهو بائع . وإذا كان هناك فضل فهو أنه
حمل الخاتم إلى وأنا في بيتي فقاطعتها في هدوء واعتزاز :

— ليس من حقى أن أتدخل في صميم حياتك يا آنسة . ولكن
من حقى أن أتدخل في صميم حياتي . . . وقد اعتدى على هذا الإنسان .
— كان بودى أن أتدخل لكنني خشيت أن ألقى على النار خطبا .

— إن اعتداء رجل على رجل أكرم للنفس من دفاع سيدة عن
المعتدى عليه !! فزمت شفقتها وهزت رأسها ثم قلبت وجهها في السماء التي
بدت زرقعتها من إحدى النوافذ ثم قالت له بلهجة فيها هدوء كثير :

— أستاذك لبضع دقائق .

وتركته إلى مكان آخر كأنما أرادت أن تقيم سدا من الوقت بين
خاطريهما وبين الذي حدث ، عسى أن ينجح هذا الحاجز في تحويل دفة
الحديث بينهما .

أما هو فقد جعل بعد خروجها يقطع الغرفة في خطا متقاربة وثيدة
ويدها معقودتان خلف ظهره وخياله يستعيد الحوادث التي وقعت له مع
هذه الفتاة . ثم استأنفا الحوار مرة أخرى :

— إنك شديد الحساسية يا أستاذ منصور . . .

— ومتى كانت البلادة معدودة في مزايا الرجال ؟ !

— ما عني هذا وإنما عني شيئا آخر . (فقال في تهكم خفيف) :

— لعلك تعنين يا مسيدي أنه من الواجب أن تقبل أكف الذين

يعتدون علينا وأن نتعلق بأذيالهم وهم خارجون . .

فنظرت إلى الأرض وهي غارقة في الكرسي وواندت على ثغرها ابتسامة

خفيفة ثم قالت :

— مطلقا مطلقا . . . لا داعي لتقيل الأكف ولا التعلق بالأذيال . .

ولا . . ولا . . التمسك بالأهداب وتمريغ الحدود عليها .

ثم ومضت عينا بنظرة واحدة استرجعتها سريعا وعادت إلى إطراقها

تنظر إلى ظهر يديها وتنقر بإحدى قدميها على أرض الغرفة . وتركته

هو متعلق الأنفاس ساكن الملامح متذبذبا بين الشك واليقين . ولم يكن

في فترة الصمت هذه صوت يسمع إلا غناء بعض الملاحين من أهل الجنوب

في مركب شراعى يحمل العسل مارا بالنيل . وكأنما كان البلبل الذى
يرقص نسيم الربيع قفصه فى الشرفة يرسل هؤلاء القوم فيما يغنون . وتهد
منصور واتجه إليها قائلاً :

— لكل شىء موسم . .

—

لم تجب ، ولكنها أسندت رأسها إلى ظهر المقعد ، وقالت له بعينها :
— إلا الحب . .

— نحن فى الربيع . . . وتقبل الأهداب لا يكون إلا شتاء .
فلم تغير جلستها ولم تفعل شيئاً . كلا ولم تقل . سوى أنها أغمضت
عينها برهة من الزمن كأنها تفتش عن الجواب فى عالم بعيد ، ثم نظرت
من جديد وكانت مكسورة النظرة مرتعشة الشفة خافتة الصوت :

— منصور . . .

—

— أحس كأن قشعريرة تريد أن تطوينى . . . هل نحن . . .

فى الشتاء ؟

وتستطيع أنت أن تتصور الباقي حتى لا أكون ثثاراً . لأن منصور
رأى أن الواجب يقتضيه أن يدفئها . . . بقبلة .

لكن شيئاً خارجاً عن هذا النطاق لم يخطر على بالهم ولا يخطر على
بالك . لقد نسيت درية أنها طلبت فنجانين من القهوة للمرة الثانية ، وقد
حملتها الخادم الطيبة إلى غرفة الاستقبال المفتوحة الباب ، ثم تراجعت

وتوارت منتظرة حتى ينقشع الموقف . لكنها ما كادت تخطو من جديد
إليهما حتى فوجئت بأن الشراب عاد غير صالح لأن يقدم . كان القدحان
قد فاضا بنصف ما فيهما من رعدة يديهما ، ثم فاضت الأطباق حتى أتلقت
المفرش الأبيض ! !

وجعلا يتمليان الحياة حلوة متجددة شهية في الوقت الذي كان راضى
ينذل فيه كل ما يطيق لينقل إلى مصلحة سكة الحديد مرة أخرى ، لأنه
قضى فيها شطرا من شبابه في أول حياته العملية . وودع البحر وداعا جافا
ليس فيه دموع . ثم تلقفته الأرض وجعل إقليم يرحى به إلى إقليم حتى
استقر في إحدى محطات الصعيد في وظيفة « معاون » ينعم بالهدوء
في الأرض ، كما كان ينعم بالهدوء في الماء .

وكان دائب التفكير في الزواج لكنه كان كمن ينشد شيئا ليس له
وجود على البسيطة ، وتأكد بينه وبين نفسه أن الزمان فرق بينه وبين
دريه ، وأنه لا سبيل إلى أن يجمعهما رباط من أى نوع كان ، لأن مركبة
الحظ قطعت بهما شوطا طويلا في طريق السعادة ، وهو هو الموظف
المغمور الذي تستهلك الدولة زهرة عمره بجنهات لا تقنع الشباب ولا تكرم
الشيخوخة ! ! كان كأنه مصاب بالدوار فسلم للأقدار سفينته الضعيفة لترسيها
على أى أرض تشاء .

على أنك قد تسائل نفسك عن قلب راضى وكيف أنه صبر على الحرمان
بعد الطعام المبكر الذي كانت تبدله له حبيبته التي هجرته . وحقيقة الموقف
هى أنه مشى في الدنيا بفؤاد ساخط موتور فاصطنع من الحب لونا رديئا

فيمصا من ذلك الذي تجود به طائفة من النساء لبضع ساعات ، أو لبضعة
ور أو أسابيع . أما الحريق الحار والسهر اللذيذ والدمعة والزفرة ،
ها جميعا لم تعرض له بعد ذلك ، أو لعله هو الذي كان يسد في وجهها
ليريق دون أن يشعر .

ودرية . . . أتراها تذكره ؟ . . . لم يكن يعرض لها إلا قليلا نادرا
خاصة بعد أن صغبت حولها الحياة . على أن حبها لمنصور لم يكن
امتدادا لحبها الأول . . . كانت كالتى غيرت لون ثوبها بالصباغة فأنستها
إم لونه الأصلي ، ثم خالت أنها ترتدى ثوبا جديدا . كان راضى ضعيف
خصية ، فلم يستطع أن يحتفظ بها بين يديه ، ثم أخطأ حين أقام من
د الأيام سدا بينهما فقسا قلبها أو نسيه على أقل تقدير . أما منصور
كان نهازا للفرص ، رجلا صارم الرجولة لا يحزن إذا أكلت طعمه
مكة . ولعل هذا النوع من الرجال هو النوع الوحيد الذى يكتب له
ناج ، مع المغرورات والمتكبرات منهن . ويخيل إلى أن راضى ذلك
افت البائس . . . لو أنه كتب إليها فى طنطا أو ترك لها خطابا مع
مة مدرسة البنات لتوصله إليها إن منحت لها فرصة — يخيل إلى أنه
ثان فعل هذا لتغير وجه حياتها وحياته . لكنهما المقادير تلهب ظهرنا
اط لا نراها وتسوقنا إلى حيث نشق ، أو إلى حيث نسعد .

وودع راضى البحر كما قلت لك وداعا جافا ليس فيه دموع ، ثم هبط
القاهرة خيا أخاه وأسرته . وعرج على سعيد ليراه . وكان فى طريقه
ث نفسه : لعل حياتى وحياة هذا الشاعر مربوطتان بكوكب نحس

واحد . . . إنه رجل مسكين . لا تريد الحياة أن تخف من جموحها معه .
وابتسم يرثى لصديقه حين تصوره فارسا قصيرا أبيض غير وسيم يركب
حصانا فارها جامحا منذ عشر سنوات ، يروضه ويسوسه فلا يرتاض
ولا يساس . ولكن . أين المفر ؟ .

كان الوقت ليلا وكان الفصل خريفا . والقاهرة إذ ذاك كأنها تمددت
في فراشها باكرة . ودار راضى حول حديقة الأزبكية وهو في طريقه
إلى سعيد فجعل يتأمل الأشجار العظيمة الطويلة ونصفها غارق في النور
ونصفها في الظلام ، فيرى الخريف وقد عراها من الورق ، فيسرى في نفسه
شئ من التشاؤم . ثم دلف أخيرا إلى شارع ضيق ، أبرز ضيقه للعينين
واضحا هائلا مبالغاه فيه أن البيوت التي تقوم على جانبيه معظمها مرتفع عال
فبدا الشارع كأنه شق بينهما بعد أن بنيت شقا . وتفوح فيه رائحة يكاد
يتميز بها وحده أو لا يكاد يشركه فيها إلا القليل من الشوارع
رائحة تستطيع أن تتصورها حين تستعرض في ذهنك صورة حوانيت
البدالين من الإغريق أو الأرمن الذين يغلب عليهم الصلع وعظم البطن
والذين تفوح من متاجرهم رائحة الجبن والزيتون والنبيد . وفي هذا
الشارع كان يجلس سعيد في حانة منعزلة صغيرة يخدم فيها صاحبها بنفسه ،
قد تجانست مع الشارع في مساحتها المحدودة ونورها الخافت الهادئ ،
الذى يساعد الأشباح على أن تظهر للمخمورين .

وتعانق الصديقان في وداد وشوق . كان راضى رث النفس أما سعيد
فكان رث الهيئة . كانت الفاقة بادية عليه بشكل لم يسبق أن تراءى فيه .

وجعل يسرد خلاصة قصته لصديقه فيقول : إنه بلا عمل منذ خمسة أشهر
وكان آخر عهده بالجريدة الصباحية يوم أن شتم رئيس تحريرها ذات مساء
لأنه رجل تافه . . تافه جدا . . كأنه لم يكفه أن إدارة الصحيفة لا تعطيه
إلا ما يحفظ عليه الرmq حتى يستدعيه هذا الرئيس أمام زائريه ليظهر
الرياسة أولا ثم ليتهاكم عليه ثانيا ؟

وطفح الكيل وفاضت الكأس حين زين له أن يسطو على كرامة
سعيد أمام بعض الزائرات . فلم يجد بدا من أن يدوس خبزا غير طرى
ولا نظيف ما دام يخطو نحو الكرامة ، ولقنه درسا في الآداب العامة
قلما ينساه . وخيل إلى الشاعر أن بعض السيدات كن ينظرن إليه في
إعجاب لا يخفى ، على حين كان الرئيس مذهولا من مفاجأة غير متوقعة
فأمسى في موقف لا يأخذ فيه ولا يدع . وكان الشطر الأخير من الموقعة
هو أن خرج سعيد من هذه الجريدة الملعونة في ثورة وصخب ، وصفق
وراءه الباب صفقة أزعجت كثيرا من الموظفين في الحجرات الأخرى .
وذلك هو آخر عهده بتلك الصحيفة .

ثم مال إليه يقول مخافتا بصوته : على أن المحنة يا صديقي لن تطول
أكثر من هذا ، فإن سعر القطن قد تحسن ، وذلك كفيل بأن يجعل
السيد المستأجر يبر بوعده فيبيع ويدفع لنا حتى قدرا من المتأخر عليه .
عندئذ أستطيع أن أبحث عن الأعمال بحث غير المضطرين ، والذي أدعو
الله من أجله هو ألا يؤخرني إلى محصول آخر . هل تتصور يا راضي أنني
من أناس تنقاذفهم المحاصيل تنقاذف المصائب ؟ . . . رمى بي واحد إلى
واحد كأنتى في حظيرة الشياطين .

وصمت قليلا حتى فرغ من بقية كانت في قرارة كائنه . ثم أخذ
نفسا طويلا قال بعده لصديقه : هيه . . . طبعاً أنت مسافر غدا ! ولكن
هل لك في قليل من الشعر ؟ . . . عندي عينات جديدة فيها جمال وفيها
قشابة . . . هل تسمع يا راضى . . . ؟ . . . ما أحوجنا يا صديقى إلى
هذه الواحة ونحن في صحراء الشقاء ! ! ولم يتمهل حتى يعرف رأى محدثه
ولكنه بدأ ينشد : . . .

— هل أعجبتك هذه القطعة ؟ ؟

— رائعة . . . جميلة . . . لم تقل أهل منها . . . إنها حزمة من
المشاعر . كل بيت من أبياتها ينبض بالحياة يا سعيد . ولكن . . .

— لا تستدرك على شيئا فإننى غنى عن استدراكك . سأقول لك :
أنها قصتها معك . . . لا تقطب هكذا ، بل إنها قصتك معها . ما بالك
لا يعجبك قولى يا أخى ؟ . . . إذن فإنها قصة كل منكما مع صاحبه .
أوه يا راضى ، ما أظن أن إطراقت سيؤلمنى . نحن نسجل اللحظات
والأنفاس ، بالبارع من أقوالنا . أتذكر حادثة مرضها تلك التى قصصتها على
يوم كنت قلبا خالصا ينبض على مقربة منها وهى لا تزال ؟ ليلة جثمت فى
الظلام ترسل لها النور والدفء والدهاء من وراء النافذة ، وهى لا تدرى ؟ !
لقد تخيلت أنا أن قلبها فى هذه الليلة نبض حين أحس نجوى قلبك ، وأنها
تقلبت فى فراشها وناجت نفسها قائلة : آه . . . ما لى أحس كأن راحة
حب تفوح فى جو المكان ؟ ! .

أظن أن هذا سيعجبها يا صديقى . فانتفض راضى كأنه ملسوع :

- يعجب من يا سعيد ؟ .
- يعجب الأنسة درية .
- هل أنت سكران ؟ . .
- السكران أنت . . . وإن لم تشرب . إننا دائماً في نشوة من خيالنا
أيها الواقعي الجامد . . . نحن في رياض من زرع أيدينا ، وإن شئنا
سبحنا في بحيرات النبيذ .
- هذا شيء آخر . . . حسبتك تتكلم عن حقيقة .
- على كل حال قد أرسلتها إليها بالبريد ، ومعهما خطاب يشرح الحال .
- عدت للهديان ؟ . . .
- ربما تغنت حبيبة « خوفو »
- بأشعار « بنتا نور » .
- لا نستطيع أن ننسى حبيب الطفولة ، فما بالك بأحباب عهد الشباب ؟ .
- أنت خصب العواطف .
- مجذب الجيب .
- ذكاء المرء محسوب عليه .
- اللهم لهم اعكس . . . يسر قلبي يارب جدبا يسرته لبطني . وهيء
لبطني خصوبة هيأتها للقلب حتى أكون كهامة المجتمع الذي أحيا فيه . . .
أستغفر الله . . . رب اعكس مرة أخرى إن كنت استجبت فإنني إنسان .
- ولم ينس سعيد وهو عائد إلى البيت أن يتلفت وهو على ناصية الحارة
قبل أن يدخل من الباب . . . كان يفتش في الظلام عن أحد الكلاب

الضالة التي تتمسح به كل ليلة والتي كأنها تناقلت عطفه وحنانه فجعل واحد منها يربط على مقربة من بيته لينال من يديه طعام العشاء . ولم يمض وقت طويل حتى كان شبح أسود يعدو إليه من أجل الرغبة ، فوقف الشاعر على مقربة من أحد الجدران حيث أخرج رغيفا مما كان يستصعبه ثم مزقه وقدمه . وخيل إليه كأنه يتسم ويدعو . وكان يسمع صوت ازدراده اللقمة حتى بعد أن دخل البيت فجعل يقول وهو يتحسس قدمه درجات السلم في الظلام الدامس : قاتل الله الجوع . . . لندعه يأكل . فإن له معدة . . لماذا نجيعها ؟ . . هل كانت تجيعنا لو أنها هي التي تحكمت فينا ؟ .

من المفروض أن قطار المساء يصل إلى المحطة التي يقصدها سعيد في الساعة الرابعة تماما لو أن الأمور تمشي دائما على ما يرام في خط « المناثي » الصحراوي ، وبخاصة في فصل الشتاء . وما كان سعيد قبل ذلك يعنى نفسه بالسفر إلى هذه البقعة لأن المستأجر كان يتفضل ويرسل إليهم بعض الحق بحالة بريدية . أو يحدث أن يسافر أم سعيد فتتولى بنفسها هذه المهمة . وأعله كان لضعف الأنوثة دخل في الموضوع حين كان السيد المستأجر يعطف عليها كلما سافرت فيزودها بشيء من المال .

لكن الأمور في هذه المرة قضت بأن يسافر سعيد بنفسه . فالأم مريضة . . بدأت الشيوخوخة تعلن عليها حربا قاما تضع أوزارها إلا بالموت ، والبرد قارس ، والابن متعطل ولو أن كسبه لم يكن من النوع الثابت أو الواسع الذي يكفل للبيت الضمان .

كانت الريح تحمل إليه رمال الصحراء في كرم وأريحية ، وهو جالس في إحدى عربات الدرجة الثالثة من قطار المساء يذكر أيامه الخوالي ويدعو لأبيه بالرحمة ، ويستجدي له المغفرة لأنه زل زلة كبرى يوم اشترى هذه العربة في تلك البقعة من مركز كوم حمادة ثم يكذب كذبا كبيرا حتى يستعيد معالمها وموقعها وحديثها ومبانيها والطرق المؤدية إليها . إنه يراها الآن كالصورة المهزوزة لكنه يذكرها على كل حال . كان يزورها هو وأبوه وأمه في المناسبات وبخاصة في إجازة الصيف حين يرتاح الموظفون فيفرون من القاهرة إلى الشواطئ أو الخلاء ، ولا يعرف كيف اشتراها أبوه إلا أن أمه تقول : إنهما تعاونا على ادخار ثمنها . وعاش سعيد محمول المئونة لا يكلف شيئا ولا يجبر على عمل حتى ولو كان واجبا مدرسيا ، فنشأ هكذا يهاب المسئوليات . ولذلك فإن قلبه يدق عنيفا كلما ذكر وهو في القطار أنه سيقابل إنسانا ما ويطلبه ببال . وقد مات أبوه وهو في السادسة من عمره وخلفه واحدا ليس له أخ ولا أخت فحملت أمه أمر تدبير شئونه وأفاضت عليه حنانا عزيزا هي وخدامته أمينة التي تكبر أمه ببضع سنوات . وحدث مرة أنه سأل أمه عن أقاربهم وأصهارهم فعرف أنه انحدر من أبوين تركيين رحلا مع جديده من أبيه وأمه إلى مصر . ثم . . . ثم انقطع حبل النسب . . . على أن هذا لا يعنيه بقدر ما يعنيه أنه سيقابل رجلا لا يعرفه . . . كل معلوماته عنه أنه يدعى أبو الغيط . فمط شفته ، وهز كتفه وقال في نفسه : وما أبو الغيط ؟ . . . يا بشما خلف !

لكن ذلك ضرورى . . . ضرورى أن ألقاه !

وأخذت الريح تهب صحراوية غربية تحمل معها رمالا كثيرة . وبدأ
القطار يخفف من سرعته ويرسل الصغير إثر الصغير ، حتى توقف عن
الحركة تماما . وتساءل الركاب ماذا هناك ؟ فقليل : إن هذا الخط المفرد
زحفت عليه جحافل الرمال فردمته وقد جردت المصلحة ثلثة من العمال
يطهرون الطريق من آثار الغزو ، لكن ذلك يعنى أن القطار سيتأخر مدة
عن ميعاد الوصول لا تزيد على ساعتين . نعم . . . لا تزيد . . . وقد حدث
ووصل قطار الساعة الرابعة فى السادسة مساء وشهد سعيد فلول النهار
السقيم وهى تتراكم بين كشتان الصحراء لتغيب فى كل فج ولتخلى
الطريق لسوابق الظلام الذى كان يعلم أنه فى غير مصلحته . لأنه لا يذكر
طريقه نحو العزبة إلا توها ، ولأن الغيوم ابتدأت تتراحم كأن بعضها يدعو
بعضها الآخر حتى لبست الطبيعة عدة الحرب . وقد كان هذا المنظر كفيلا
بأن يجعل سعيدا يصفق فرحا ونشوة لو لم يكن عابر سبيل .

لم يكن يعرف الكثير عن طبيعة الريف ولذلك ركبه الدعر حين رأى
ليل الشتاء هناك ساعة داست قدماه أرض المحطة المقصودة . فرأى الأفق
دائرة كاملة لا يقطعها بناء ، وبدت الدنيا كهفا مظاما عظيما لا يخفق فى جوفه
شعاع واحد . وسمع أزيز الريح فى أسلاك التليفون وبعض شجرات
متجاورات من أشجار « الجزورينا » تجمعت على مقربة من المحطة
فبدت أشباحها أشد سوادا من حلكة الليل . وخيل إليه أنه نسي الطريق
وأنه من المحال أن يهتدى إليه . فأخذ يتلفت يمنة ويسرة حتى بصر بأحد
المسافرين النازلين معه وكان لا يزال على الرصيف مشغولا بربط قطع متاعه

بعضها ببعض مع رجل آخر يعاونه على حملها . فتقدم منهما مسرعا قلقا
وسألها عن أقرب طريق لعزبة عامر أفندى . فسارع غلام دلت نبراته على
حدثة سنه : ليس فى هذه المنطقة عزبة بهذا الاسم ياسيدنا الأفندى ،
فانظر لعلك قد أخطأت مخطتك المقصودة . فأنزع قلب سعيد وزلزلت
أركانها وكاد يصرخ كالأطفال سائلا عما عساه أن يفعل . ولكن الرجل
الثانى أسعفه قائلا : لا . . . لا . . . مهلا يا بنى واسكت فإنك لا تعرف
ما يعنى . . . آه . . . عزبة عامر أفندى . . . سر نحو الجنوب قليلا ،
ثم عرج على يسارك تجد طريقا ضيقا يوصلك إليها بعد نصف ساعة على
قدميك . فقال الغلام كأنما يستدرك شيئا فاته : لعلكم تقصدون عزبة
أبو الغيط . معذرة ياسيدى فكلنا هنا لا نعرفها إلا بهذا الاسم منذ
زمن بعيد .

كان البرد قارسا وفى السماء سحب كثيف راكد وإن لم يكن هنالك
مطر . وسار سعيد يهذى الدليل الذى دعا له بالسلامة ثم حمل متاعه وسار .
ومضى سعيد لطيته وهو يعجب من أن عزبة أبيه لا تعرف إلا باسم عزبة
أبو الغيط فألهاه هذا الخاطر عن مخاوف الطريق لأنه ليس من القرويين . فلم
يعرف كيف قطعه ولا فى كم من الزمن بل أحس فجأة أنه على مقربة من العزبة
لأن قلبه كاد يكف عن الحفقان . : ولم يكن ذلك من حنين ولا من
خوف فلقد ثارت عليه الكلاب من كل صوب فدمعت عيناه لأنه يهاجم
وهو فى صميم وطنه . ولأنها لا تعرف كيف يعطف على جنسها فى وطنه
الآخر . لكن ذاكرته أغاثته وأمدته فجأة باسم رجل من الفلاحين كانت

أُمه تشيد دائماً بإخلاصه وكان خفيرا على هذه العزبة . فصرخ في الظلام صرخة يخنقها البكاء : يا عم شعبان . . أنا ابن عامر أفندى . فألقه عم شعبان . كان الشيخ أبو الغيط كريما جدا مع جميع الناس ، بخيالا على ملاك هذه العزبة . كان سلطانا من سلاطين الريف الذين يستنبتون الجريمة ولا يعسهم القانون إلا مسا رفيقا . ومن أجل ذلك كان يحيا في سعة . وكان من سلاله الأعراب ولعله احتفظ بعراشهم التالك من الكفر والنفاق فنشأ قاسيا جبارا . ولم يستقبل مالك العزبة في منزله بل أنزله في منظره عامة بنيت قديما للضيافة فبسطت فيها حشية وأوقدت من أجله المدفأة ، ثم استمع الضيف إلى حديث عم شعبان حتى الهزيع الأخير من الليل ، وكان حافلا بالذكريات عن عامر أفندى أيام كان يحىء مصيفا وعن طفولة سعيد أيام كان طفلا مدالا لو طلب بمناعته قرص القمر لأنزله له الفلاحون .

ثم أصبح الصباح واستيقظ سعيد يعنى نفسه بأنه سيرى الشعر والسحر فى جنة أبيه المؤجرة فخرج يحوس خلالها . لكنه رأى ما لم يكن يتوقع : لقد عاثت فى معالمها يد الزمان فشوهت صورة لها كانت ذاكرته محتفظة بها منذ رآها للمرة الأخيرة . ما لها هكذا قد زحفت عليها الصحراء ؟ حقيقة إنها عند السفح ولكن لماذا يتركون الرمال تغزو أرضها الحصبة ؟ . . . حتى إطار النخيل الذى يدور حولها مع السور أضحى القسم الغربى منه غارقا فى الرمل ، يشير بسعفه كأنه يطلب النجدة . وقد أطلت رؤوس فسائله من الكشبان كأنها تنظر بعينها إلى النور ! ! وأخذت طلائع الجذب تنشر الفساد فى التربة الحصبة من الشق الغربى ! . . وعريشة الكرم . .

ما بالها تقلصت عنها الأغصان فأصبح معظمها خشباً عارياً ترتجف قوائمه
مع الريح كأنها رجل شيخ عجوز انحسرت عنها أذيال القميص ؟
وشجرتا التوت القامئتان أمام الباب الشرقي الضخم ، فقدت منهما واحدة .
يقول بعضهم : إنها بيعت للحريق ويقول آخرون : إنها استهلكت في أدوات
الزراعة . والباب الثقيل الضخم الذى كان لا يدفعه الرجل إلا بصعوبة . .
لقد ظل حيناً طويلاً من الزمن وهو مفتوح حتى تراكم التراب حول حافته
السفلى فأصبح من المستحيل أن يتحرك . وهناك دجاجة تقرقر لفراخها
من حوله لينبش في الثرى الناعم عن شيء من الطعام . كل شيء يوحى
بالبؤس والفاقة ، وبدأت العزبة كأنها تستنجد بمالكها . وقد كان على
معاونتها أعجز منها على معاونته . فجعلاً يتقارضان الرثاء الصامت . . .

ثم خرج الشيخ أبو الغيط بعد ارتفاع الضحا ليستقبل ضيفه الكريم
وكان في تبعيته رجل فارح الطول قاسى النظرة عجب سعيد حين سمع السيد
المستأجر يناديه بعد أن جلسا على الحصير في الشمس المشرقة في حديقة
الفاكهة التي تستطيع الخيل أن تركض فيها ولا تتعثر — عجب سعيد حين
سمعه يناديه قائلاً : يا « كانون » . . . اعمل شأى .

— جئت في الوقت المناسب يا سعيد أفندى . لأنى أفكر جدياً في ترك
هذه الأرض لأنها أصبحت عاجزة عن أن تغل ما يسد إيجارها . يعنى أن
تعبنا للشيطان ! !

— حفظكم الله !!

— كما أقول لك تماماً وأنا رجل حسن الحظ لأنك فاجأتني بالحجى .

وأستطيع أن أؤكد لك أن ثمن القطن استنفدته الأموال الأميرية وبنك التسليف . والأمر بين يديك . ولو أن السيدة والآنسة هي التي حضرت بديكم لصرناسريهما إلى التفاهم لأنها عاقلة . أما طيش الشباب ورزاة مثلي في هذه السن فأني أظنهما كفيلين بأن يجعلا التفاهم بيننا شيئاً غالى الثمن . ثم قلب كفيه كأنه خسر الصفقة وفشل في المفاوضة في وقت واحد . فسارع سعيد يعلن إليه أنه حتى الآن لم يقل شيئاً يستطيع أن يعتبره الشيخ أبو الغيط صواباً أو خطأ . فما كان جوابه إلا أن قال :

— إنني أعرف النتيجة مقدماً يا بني فلا داعي للنقاش . وليس أمانى إلا أن أبيع المواشي أو أبيع الأولاد . وبدأ عليه الغضب فنفس عن نفسه بأن أمر بصوت شديد : يا كانون ... شأى مرة أخرى ! ! . فاعترض سعيد قائلاً :

— لقد شربت الكثير أرجوك أن تعفيني .

— تستطيع يا بني أن تفتش عن مستأجر آخر . ثم تكون بيننا تسوية عادلة في التأخر على من الإيجارة .

وسكن الليل وأوقدت المدفأة مرة أخرى ، وكانت الكلاب تتنابح خارج السور في الظلام وعلى سطوح بعض المنازل . على حين كان عم شعبان يهمس في أذن سعيد ويقول له :

الله وحده هو الذي يستطيع أن يقيلاك يا بني . . . من الذي يجرؤ على أن يشتري أو أن يستأجر في هذه المنطقة أرضاً كان يزرعها أبو الغيط ؟ ثم برقت عيناه في وميض النار وفاض منهما رجاء وورثاء . ولم يكن سعيد في حاجة إلى أن يرجي فقد استقل قطار الليل المسافر نحو الجنوب .

«سيدتى : حاولى ألا تحتقرى هذه الرسالة فقد تجدى فيها شيئاً جميلاً .
 أقرئى هذه القطعة ثم حاولى أن تغنيها وأنت فى مخدعك أو حديقة منزلك ،
 وأؤكد لك أنك ستحسين أن طاقة السحر التى ستنبعث منك ستسحرك
 أنت شخصياً . وإذا راق لك أن تعرفى كاتبها فاطلبى بالتليفون فى أى مساء
 تشائين ، من أطلقوا عليه اسم سعيد » .

وعجبت درية من غرابة الكاتب والمكتوب ، لأن الشاعر متواضع
 والشعر جد عظيم . ولأن شيئاً من ضميم ماضيها بدا متفرقاً وراء الكلمات
 كأنه يناديها . . . فذكرت شيئاً قديماً ولم تستطع أن تمسك قلبها عن
 الحفقان . وأقفلت مخدعها فى مساء اليوم الذى تسلمت فيه هذه الرسالة
 ثم اضطجعت على فراشها وبدأت تغنى ، فإذا بالدموع تسيل على خديها .

وعندئذ عرفت إلى أى حد ستستطيع أن تؤثر في الناس ، ثم جعلت تفكر في أمر هذا الشاعر وفي المصادفة التي جعلته يصب قطعة من ماضيها في هذه الأغنية الجديدة .

وكانت السنة الناس تتناقل حب درية ومنصور في المدة الأخيرة . فتخوض في هذا الحب بطريقة الناس خوضا ينسج الخيال فيه ألوانا مختلفة من القصص . ثم يتساءل المتحدثون بعد أن يفرغ كل ما في جعبته : وإذا كان هذا صحيحا فلماذا لا يتزوجان ؟ . . .

ويستأنف الخيال عمله مرة أخرى فيخلق ألوانا من القصص كان الحبيبان يراجعانها في أصيل ذلك اليوم وهما جالسان في حديقة منزلها . مراجعة لا تخلو من الالذة . كان يسألها قائلاً :

— أليس للناس من عمل إلا أن يخوضوا في شئون الناس ؟ . فتجيب في نظرف ساخر :

— شئون الناس هي الشيء الوحيد الذي يمكنهم أن يفكروا فيه . ترى هل تستحسن أنت أن يعنى الناس بشئون الحيوانات أولاً وقبل كل شيء ؟ . . . لا لست أفصد هذا .

— إذا فلا داعي للمقدمات ، وهات ما عندك من القصص .

— قابلني أحد أصدقائي من الذين يعرفونني ويعرفونك وكنا في حفل جامع عظيم ، وبرز هذا الصديق فجأة من بين الناس ثم جذبني من ذراعي في عجلة من سيفضي بنبأ خطير . ولا أكتمك أن مفاصلي قد ارتهكت .

من المفاجأة . ولما انتهى بنا السير إلى مكان نستطيع أن نتحدث فيه
سألني بلهجة العاتب قائلا : ألسنا أصدقاء يا منصور ؟ فأجبت بآن ذلك أمر
لا يرقى إليه الشك . فاعترض قائلا : إذن فلم لا تعاملني كما يعامل الصديق
الصديق ؟ فابتلعت ريقى متلعثما لأنى لم أفهم . لكنه رادف حديثه : أتظننى
أكره لك الخير ؟ فاستحلفته أن ينطق بالحكم بعد كل هذا . فما كان
جوابه إلا أن قال : إذا كان أمر الخطبة قد تم بينكما فلماذا تنكته عني
والناس كلهم يعلمون ؟ فلم أزد على أن هزرت رأسى متنهدا ونظرت إليه
في عتاب ثم رجعت إلى حيث كنا نجلس وتبعنى هو إلى هناك . .
قالت درية وكأنها تحلم :

— الزواج ؟ . . . آه . . . نعم الزواج . . هل تعرف ما معناه ؟ . .
حفنة من الماء تلقى على وجه الحبيبين ليفيقا من غيبوبة الأحلام . دقة
الناقوس التى تؤذن بانتهاء ساعات اللهو والحرية .
فسألها فى جد عميق :

— هل تريد أن تفرى من الحائمة الطبيعية لمرحلة الشباب عند
كل فتى وفتاة ؟ !

— إن الجواب عن سؤالك هذا يستوجب سؤالاً منى وإجابة منك .
هل يستطيع قلب امرأة أن يتسع لهذه الألوان من الحب . فن . . .
وزوج . . . وأولاد ؟ ! . . . غالباً ما سيكون جوابك بالإيجاب ومن أجل
ذلك فإنى أرى أن نؤجل النقاش فى هذا الأمر إلى أوان آخر . . . إنك
تقول بينك وبين نفسك : هذه هى المرة العاشرة التى أفر فيها من مواجهة

الحقائق ولكن أقول لك في غير تردد : إن قلوب بعض الناس كثيرا ما تخطط لنفسها طريقا شعريا تغرس الأحلام على جانبيه الرياحين ، حتى إذا ما انتشع الحلم بدت الحقائق سيئة بشعة . وقد تكون مخيفة كابتسامة الجمجمة . لذلك فإنني كثيرا ما أناهض قلبي وأثور عليه . واهلى فيما مضى قد وجدت في خطى هذه رياضة حلوة حين أسوق قلبي إلى الينبوع ثم أحاول وأجرب ماذا سيكون لو أنى رددته وهو ظمآن . وقد تكون الرياضة نوعا من التسلية لكنها تسلية مفيدة تعطى في بعض الأحيان نتائج لم تكن منتظرة .

ثم إن حياتي أيها الصديق قد جمعت كثيرا من المتناقضات ، وحفلات بحوادث كنت أراها تافهة إبان وقوعها . لكن الزمان الذي يجد بنا مسرعا في طريقه المجهول كشف لي أنها جد عظيمة . ولعل هذا قد حملني على ألا أخضع حياتي لقواعد منطقية لأن للأقدار منطقا مستقلا وحسابا لا نعرف أرقامه . وجدتني فجأة وبلا تدبير أحب فنى يا صديقى . وأخشى أن أحب زوجي على حساب فنى أو أن أحب فنى على حساب زوجي .

وقد يقول لي أحد الناس : إنك تستهينين بعمرك وتبذرين في ثروة الشباب وثروة الشباب قليلة العدد مهما تكن عظيمة ! ! ستجدين نفسك في يوم من الأيام لا تعلمين كنهه ، وقد هجم عليك البرد والثلوج فأقول له : نحن في مصر . في الوطن الذي حنت عليه الطبيعة فجعلت فصوله ربيعا كلها .

فهن أين يأتي ما حدثتني عنه ؟ ! فإذا بالذي يحدثني يهز رأسه وتبرق ثناياه بابتسامة الإشفاق على ويعود فيقول : الشيخوخة يا سيدتى . . . الشيخوخة يا آنسة أعدى أعداء كل فنانة . كيف تكونين حين ترين إحدى المجلات

وقد نشرت صوراً للذكرى والتاريخ وترين بينها صورة لك في إطار ماحل
من الأزواء والنسيان ، وتحت تاج من الشعر جميل أبيض ولكن على رأس
غير الفنانة ؟ . . . ثم تنظرين مرة أخرى فإذا بأسباب النسب التي تربط
الإنسان بالإنسان وتصل الحيوان بالحيوان غير متوفرة لك . وهذه الأيدي
التي كانت تصفق وتشير ليس هنالك واحدة منها تقارع جرس الباب لتقول :
كيف حال من أطربت مجتمعتنا فترة من الزمن ؟ ثم تنظرين مرة ثالثة
وتفتشين في كل صوب فلا تجددين شيئاً . . . إلا البرد والثلوج . . .

— هل بقي عندك شيء تقولينه ؟ . . .

— لم يبق عندي إلا أن أترك الشراع للريح . . . لأنني لم أصنع
حياتي . حياتي هي التي صنعتني يا صديقي . . .

وشردت كأنها تستعيد حوادث الماضي ثم هتفت فجأة : إنها شيء
ظريف . ثم أخرجت رسالة سعيد من تلافيف ثوبها وقدمتها لمنصور ،
فلما فرغ من قراءتها أبدى إعجابه بكل ما فيها . ثم أمسى المساء فتاب
الموسيقى عن صديقه في طلب هذا الشاعر العاثر الحظ ، ولم يكذب يفعل
حقاً ابتسم وهمس قائلاً لها : إن الموسيقى تلاحقني في كل مكان . إن ألحانا
جميلة تنصب في أذني من خلال السبابة .

— من الجائز أن تكون أخطأت في الطلب .

— ربما .

وعاد فأدار قرص التليفون حريصاً حذراً . لكن الموسيقى دأبت
سمعه ، كما حدث من قبل . ورد صوت دل على أن التكلم من النوبيين

فقال له منصور : إن لم أكن مخطئاً فصلنى بالأستاذ سعيد . . . فأجابه النوبى : إنه على سفر ويستطيع السيد أن يترك رقم تليفونه .

وتمر أيام معدودة يرجع سعيد فى خلالها من عزبة « أبو الغيط » خالى الوفاض مفلساً حائراً ، ثم يذهب إلى المقهى ذات مساء فلا يقول له أحد : إن أحداً سأل عنك فى غيابك . واستولى عليه هذا الخاطر وحاول أن يسأل ، لكنه خجل من نفسه . ثم حانت فرصة مر فيها أحد الخدم من أمامه فسأله فى تردد شديد ، لكنه فوجئ بما لم ينتظره .

وأجاب طلبه للتليفون صوت نسوى ساحر خيل إلى سعيد أن صاحبتة تغنى ، ولم يطل الحديث بينهما لأنه سيكون فى بيتها بعد قليل .

كان الوقت مساء والسماء محجبة بالغيوم ، لكنه لم يكن هناك برد ولا عواصف . وسلك الشاعر إلى منزلها طريقاً يكاد هدوؤه يصل إلى حد الإقفار . . . كان النيل إلى يمينه يجرى فى فتور ، لا تسمع فيه إلا همسات يصبها فى آذان القاهرة كأنما يهددها بها حتى تنام . أما المساكن التى على يساره ، فقد كانت مقدمة طيبة تدل على النعيم الذى سيراه فى المنزل المقصود بعد لحظات قليلة .

وجعل يقلب ناظريه فى غرفة « الصالون » وهو جالس وحده يتربص الطلعة التى لعبت زماناً بقلب أحد أصدقائه . ثم يتجه إلى السماء بقلبه الخائف وطرفه الراجف مستلهماً منها النصر والمعونة . حتى إذا أهلت عليه حيت وجلست ، فجلس يفرك كفا بكف كأنه يطلب الدفء بهذه الحركة التى كان يستر بها اضطراب أعصابه . وكانت درية خيرة بهذه المواقف

فلم تدعه يحس طويلا بشقل الوطأة ، وبخاصة عند ما رأت أمامها صفحة واضحة من الطيبة والسذاجة ، فضلا على شيء من الفاقة حاول الشاب جاهدا أن يسترها عن الأبصار .

قالت درية : لا أستطيع أن أكتم إعجابي بما أرسلته يا أستاذ سعيد . .
وأنا واثقة كل الثقة أن مستقبلا باهرا ينتظرك . فرد دون أن يرفع إليها طرفا :

— سأعتر دائما بهذه الشهادة يا سيدتي .

— لكنك رجل عظيم التواضع . . . مع أن التواضع قليل في زماننا المعرور .

— عفوا . . . فأني لم أعمل ما أمتحق عليه هذا الشاء .

— كذا ؟ . . . ألم تقل شعرا قبل هذا الذي أرسلته إلى ؟ .

— قلت الكثير .

— أين ومتى ؟

— في سلال المهملات من زمن بعيد عند رؤساء التحرير . وعلى صفحات بعض المجلات الكاسدة التي لا يشتري أعدادها إلا الذين يكتبون فيها ، وعلى صفحات الليل حين يصحبنى الظلام والوحدة . . . وعلى صفحة الجدار الذي يقوم إلى جواره سريري . وعلى صفحات قلوب الأصدقاء الذين أطمع أن أقول لهم كل ما يعتلج به صدري . . . وهذا يا سيدتي هو ديوان أشعاري . . . فقالت مستغربة :

— أنت مجيد . . . فلماذا أراك غير مشهور ؟

فرفع إليها طرفه للمرة الأولى ثم أطرق . ثم شرع يتكلم في نشوة
وهدهوء وسحر ، كأنه سكر بعد أول رشفة :

— إن سيدتى تتكلم عن شيئين ، وهى تظن أنها تتكلم عن شيء
واحد الجودة شيء والشهرة شيء آخر . إذن فهما شيئان . غير أنه
يغلب أن يكون كل مشهور جيداً ، لكنه لا يغلب أن يشتهر كل جيد . .
— منطق سليم . . . وأومات برأسها كأنها تستزيده . فأردف :

— مواهب الناس ككنوز الأرض ، لا بد لها من مكتشف . . . أم
هل قد سمعت عن كنز فتح نفسه ؟ . . . لا بد من فرصة لكل فنان
وإلا ظل قابعا في زاوية النسيان حتى يذوى جمال فنه ، كما تجف الأصص
إن أهملتها يد الساقين .

— قول جميل .

— لو لم تحلى بلطفك عقدة لسانى ما استطعت أن أقول قبيحا
ولا جميلا .

— غير أنى أرجو ألا تأخذ الحياة كما يأخذها اليأسون . . . هنالك
ناس كثيرون طرقت يد الفرج أبوابهم بعد أن طال انتظارهم فاستغرقوا
في النوم . ثم تبوؤوا من الحياة منازل رقيقة . وأستطيع أن أقص عليك
طرفاً مما حدثنى به بعض عظماء الموسيقى عن نفسه في صدر شبابه . قال :

ظلمت من سكان السطوح إلى مدى خمسة عشر عاماً . وكانت تقاسمنى
مساءات الحياة — لأنه لم يكن هناك مسرات — خادم ريفية عجوز أعيتها
الحيل فى إبادة الفيران التى كانت تأكل المتاع والطعام وترزعجنا ونحن نأمن

وحدث أن برز أمامها فجأة وهي مشغولة فأر كبير ، فمدت يدها إلى أقرب شيء . تستطيع أن تحطم به رأسه ، ثم ضربته به ولكن الأداة هي التي تحطمت ونجا الفأر بأعجوبة . وقد كان جزعى شديدا عند ما عدت من الخارج ، وما ذلك لأن فأرا قد نجا من الموت ، فأنا أعلم أنه لكل أجل كتاب . بل لأن الخادم هاجمته بقوس « الكمنجة » فكسر نصفين
لكن أيام القسوة هذه تمخضت عن نعيم وشهرة ، وقد استمعت هذه الخادم إلى أولى حفلاتي وكانت تسمح دموع الفرح بيدها المعروقة العجفاء .
هذه قصة عظيم أيها الشاعر ، فلا تيأس ! !

عزيزي راضي :

حاول أن تمسك قلبك حتى لا يثب من بين أضلاعك فإنني سأقص عليك مالا تستطيع أحلامك أن تؤديه إليك في مدى خمسين عاما .
هل تتصور أنني رأيته . . . إن كنت واسع الخيال فتصور هذا يا صديقي ،
أما إذا كان خيالك عبقريا فذا قادرا على أن يعمل المستحيل ، فتخيل أنني
كنت في إحدى حجراتها أتحدث إليها وتتحدث إلى . ليلة اتفقنا على أن
تغني مقطوعة شعرية قلت لك ليلة خلتنى سكران إنني بعثتها إليها بالبريد .
ستغني بماضيكا فاستمع إليها عما قريب . وتستطيع أن تصنع بالمذايع ليلتشد
كل ما تشاء . . . قبله إن شئت . واحتضنه إن أردت . أو تصوره مغمى
عليه من فرط ما به ، ثم صب على وجهه الماء ! !

لماذا صورتها لي هكذا في أحاديثك عنها ؟ . . . لم أرها كما صورتها

. . . رأيتها جمالا عاطفا متوددا حنوناً يدي ويظمن ويبشر دائماً
بالحظ والسعادة .

دخلت بيتها ثلاث مرات يا صديقي وكنت أحس في كل مرة أنني أترك
في جنتها ثلث قلبي قبيل خروجي ، وتستطيع أنت بعد ذلك أن تجري عملية
حسابية بدائية ، تصل بها إلى نتيجة مقابلاتي .

وهكذا أنا دائماً كما تعرفني ، آخذ القليل وأعطى الكثير . لكن ذلك
الذي قصصته عليك غير قادر على أن يثير في قلبك خرجاً ولا غير ، لأنك
تعرف طريقة حي . . . حب لا تفاعل فيه لأنه طرف واحد ، على أنها
في العلياء . ودائماً في العلياء . إن هبطت إلى بعض المساكين فما ذلك
إلا لتواسيهم فحسب ثم ترتفع إلى عليائها من جديد .

لعلك تسمع عن اسم الموسيقى الملحن « منصور » إنه هو الذي
موضع لأغنياتها الألحان . رأيتـه في بيتها مرتين من ثلاث زرتها فيها .
وأعترف لك بأنني كنت أحس وأنا في حضرته بتضاؤل الهر في حضرة
النز . . . له شخصية جارفة قوية تنبثق من صوته وعينيـه ، وبه اعتزاز
وغيره تذكرني بطبائع الفرسان في العصور الوسطى .

ربما كنت واهماً أو مبالغاً إذا خمنت أن هنالك حبلاً دقيقاً قوياً خفياً
يربط بين درية ومنصور . لا ترع فإنني أحدثك عن أشياء أعتقد أن
الزمن قد فرغ من أمرها . أعني عن ذكريات حق بالنسبة إلى .

وكانت هنالك رسالة أخرى مع هذه التي تسلمها راضى . . . كانت

من أخيه الكبير كتبها إليه من القاهرة . وكانت خليطا من عتاب ورجاء
وتذكير يشير في النفس أشجانا كثيرة . كان يقول في بعض سطور :

« لا أرانى راضيا أبدا عن خطتك المرتجلة وطريقتك العقيمة التي
ما أنتجت شيئا خلال عشر سنوات . حاولنا قديما إقناعك بأن تتم دراستك
نخالفتنا وقلت : إننى لا أريد أن أكون عبئا على أحد . ثم توظفت فلم
تستطع أن تدخر حتى الآن شيئا يذكر » .

لكن عبارات الرسالة أخذت ترق بعد ذلك شيئا فشيئا :

« ما لك تباعد بين الفترات التي تنزل فيها إلى القاهرة . . . هل
فقدت هذه العاصمة سحرها بالنسبة إليك . أم أن خلاء الصعيد قد استطاع
أن يملك زمام نفسك الطيبة ويتحجب إليك حتى أحبيبته . . .

أرى لزاما على أن أذكرك بأنك تخطو إلى الثلاثين من عمرك . وأنتك
موظف مغترب تحتاج إلى من يوقد لك المصباح في الليل ويدفئ فراشك
في كل شتاء . . . ألم تضجر حتى الآن من حياة الوحدة ؟ « نبيل » ابني
إلى جوارى الآن ويرجونى فى تدلل لا يحسه إلا الآباء أن أبلغ عمه
التحيات . وعلى مقربة منى هنالك فى الردهة خالة نبيل الآنسة زينب وقد
سألتنى الآن قائلة : لم تكتبون ؟ فلما عرفت أننا نكتب إليك ابتسمت
وأطرقت . فأريت لزاما على أن أبلغك تحياتها » .

وطوى راضى الرسائل وجعل يتحدث نفسه :

آه . . . مالى صرت هكذا ؟ . . . كدت أنسى الناس . . . خيل إلى
فيما مضى أننى سأستحيل إلى « ترسة بشرية » تحيا فى الماء واليوم يخيل

إلى أنني أصبحت من سلاله القطارات من كثرة ما طالعت وجوها ودبرت
أموورها . وأصبحت أنظر إلى وجه أحدها الأسود فأكاد أقرأ فيه تاريخ
ميلاده ، وألح عليه تجاعيد الشيخوخة ، وأنظر إليه وينظر إلى كائننا من
عنصر واحد ؟ . . .

يا إلهي . . . منار و قطار ١١ . وجنّيات يقسمها القلا ، إلى ثلاثين
قسما !! هل هذه هي الحياة ؟ . . .

ثم شرد ذهنه وندى طرفه بالدمع وسرح بصره من النافذة فأخذ
يجول في الخلاء هناك ويتواثب على الجبال المقفرة الصخرية التي تنصب عليها
حرارة الشمس في قسوة وقوة . ثم تهاوت عليه الذكريات فاستعاد تاريخ
درية وجر بعض حوادث من الضباب الذي أخذ يرين عليها رويدا رويدا .
ثم فرغ منها فجعل يذكر زينب . أخت زوجة أخيه . ويكادان هو وهى
أن يكونا من مواليد عام واحد .

كانت تكثر من الزيارة كلما رآته هنالك وتمهدى إليه من بواكير
« أشغالها » هدايا جميلة . وتتطوع فتساعد أختها في شئون « المطبخ »
لأن ضيفا عزيزا زاد على الأسرة وزيادته تستوجب هذا الاهتمام . .

وكف بغتة عن التفكير فيها حتى تجيب نفسه عن هذا السؤال :
أىكون السر في إكرام أم نبيل وتوددها له هو أنها تريد أن تربط
بينه وبين أختها برابط الزوجية ؟ . . .

وهنالك يوم في ماضيها القريب لم يستطع أحد منهما بعد أن ينساه .
كان راضى في بيت أخيه والأسرة كلها في الخارج حتى الخادم كانت

مع الخارجين . أما الضيف فإنه كان في المدخل متطرحا في استرخاء وهدوء
وأمامه منضدة وفي يده لفاة وتحت عينيه كتاب . كان يدخن ويقرأ
ويفكر جيدا فيما يقرأ . ثم تخلى ذهنه فجأة عن متابعة عينيه فانقطعت
الصلة بينه وبين الصفحات ، لأن طارئا غريبا استطاع أن يحتل ذهنه .

ما هذا ؟ . . . وما الذي حول اتجاه أفكاره حتى ذكر الآن زينب
وحق جعل تخمين ما يحدث بينهما لو أنها طرقت عليه الباب وأخذت تنقل
قدميها الصغيرتين نحوه في جمال وتؤدة . . . وابتسم . وهز كتفه في
استخفاف وعجب ، ثم استغرق فيما كان آخذا فيه من قبل .

ودق قلبه مع دقات جرس الباب واحدة بواحدة لأن شيئا قال له :
إنها هي . لكنه قام في خمول وإهمال ليفتح الباب ، حتى إذا ما تفرج عن
وجهها حيته بابتسامة ساقته إلى حيث كان يجلس في هدوء وصمت . ثم
أقفل الباب بيدها ثم جلست على كرسي قريب منه وكأنما تعمدت ألا تسأل
عن سر هذا السكون الذي يسود المسكان إلا بعد أن تبوأ مكانها :

— أين الجماعة ؟ . . . هل كلهم في الخارج ؟ . . .

فأوما برأسه وعينيه . لأنه كان مضطربا وبخاصة بعد أن أحس

اختلاجة خفيفة في نبرات صوتها وشحوبا قليلا يمويه خديها .

— كأنك تؤثر الوحدة ياراضى حتى وأنت في القاهرة . . . لماذا لم

تخرج معهم ؟ . . . ولكن . . . (وتلفتت ثم أطرقت ثم نظرت إليه
ومالت نحوه قليلا) ما هذا الذي تقرأ فيه ؟ !

— قصة . (فأجاب بابتسامة لمعت معها ثناياها واتسعت بها عيناها)

— قصة ؟ . . .

— نعم قصة . . .

وساد صمت قصير المدى كان هو فيه تحت سلطان ظن : هو أن تكون زينب عرفت بطريقة ما أنه وحده في المسكن . أما هي فكانت تنهياً للخطوة التالية :

— إذن فاسمع . . . لا تغير الصفحة التي تقرأ فيها الآن ، وأنا لا أعرف ماذا تتحدث عنه هذه الصفحة بطبيعة الحال . وسأعمل عملاً لطيفاً هو أن تبدأ بالقراءة من السطر الأول في الصفحة اليمنى ولا تكف حتى نخرج بمغزى أيا كان . وليكن هذا المغزى . . . فألى أنا . . .

لكن عينها كانت تقولان له : فألنا معا . . . أنا وأنت . . .

ولم يستطع راضى أن يقول : لا . بل شرع في التنفيذ :

« . . . لكنه قال لها : الحب شيء والزواج شيء آخر . . . »

فأربد وجه زينب كأنما لطمها الفأل . ثم سكت فمالت قليلاً نحو الكتاب لترى بنفسها ما فيه ، على حين واصل راضى قراءته :

« . . . لأننى يا سيدتى رأيت فتيات أسعدن فى الحب أحبابهن ثم أشقينهم

وهم أزواج بقية الحياة . حتى لكأنما كانت فترة الغرام والخطبة فى حياة زوجها أشبه شيء بالتفاحة التى تقدم للمشقوق . »

وتوقف برهة قصيرة ليغالب ضحكة كادت تغلبه وليلقى نظرة على هذه

التي طلبت فألاً . . . ثم عاد يقرأ :

« . . . فابتسمت ساخرة من قوله وأجابته برقة وهدوء حتى كأنه

كان يطريها : إن الذى يجعل الحب شيئاً والزواج شيئاً آخر ، رجل

إما جاهل ، وإما منافق . أما التى لا تستطيع أن تسعد رجلاً فإنها ولا شك

غير جديرة بالأنوثة التى منحت لها . »

وهنا وضعت يدها على رأسه وسحبته برفق إلى الورا حتى يكف
عن القراءة . فعلت ذلك وهى تقول : هيه . . . ألم تكتف بعد ؟ . . .
لكنه نظر إليها صامتا ولم يتكلم فوصلت حديثها قائلة : هل أعجبتك
ما قرأته ؟ فأجابها هامسا بعد أن شرد قليلا ببصره فى الفضاء : إن كنت
تريدين الجواب صريحا لا مجاملة فيه ولا نفاق فاعلمى أن ثقتى فى المرأة
ضعيفة جدا . . . تكاد تكون هباء يا آنسة . . . كانت كفها لا تزال على
شعره منذ وضعتها ساعة كانت تحول بينه وبين القراءة وقد تركتها زينب
ثابتة فى مكانها حتى فرغ هو من حديثه وبدأت هى تتكلم . فجعلت أصابعها
تجوس بحفة رفيقة كأنها تبعثر بين أصوله الحنسان على حين كانت هذه
العبارات تترقق خارجة من بين شفثيها فى رقة وعذوبة :

إنك شديد القسوة يا راضى . . . أقصد . . . قسوتك على نفسك .
إنى كلما تذكرت طباعك ورأيت الطريقة التى تعامل بها نفسك يئست
من كل شيء . . .

فنظر إليها يستوضحها ما تقول والتفت عيناه بعينها فاستطاعت أن
تبعث إليه بنحدر خفيف ثم استطردت تقول :

نعم يئست من كل شيء لأننى أتألم كثيرا للنفس التى تشقىها
بأعمالك . . . آه . . . ليتنى أستطيع أن أنقذ «راضى» من «راضى» . . .
أعتقد أنى أستطيع ولكن الفرصة لا تواتبنى .

— هل تقصدين ما تقولين ؟ . . .

— وأكثر مما تظن .

— وحتى هذه الساعة بقيت على رقعة الأرض امرأة فيها وفاء ؟ . . .

— ليتنى أتمكن فألتقط قلبك من تحت قدميك قبل أن يفوت الأوان ..
فلم يجب . وظل ناظرا إلى الحائط الذى يواجهه بعينين ثابتتين لا تطرفان .
أما هى فأنزلت كفها من رأسه إلى كتفه ، ثم من كتفه إلى ذراعه حتى
إذا ما لمست ظهر يده أمسكت بها قليلا ثم رفعتها إليها وأمرت عليها شفتيها
وأهدت إليها حبا وحنانا وحرارة وقبلة . كل ذلك وهو جامد كأنه تمثال !!
ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى رأت زينب أنه لا مقام لها فودعته
برفق لكنها صفقت وراءها الباب بشدة .

قال راضى فى نفسه بعد أن استعاد هذه الذكريات : حقيقة إننا قساة .
نهدى الورود إلى اللأى لا نجدن علينا إلا بالآلام ، وتقدم الآلام إلى اللأى
يحطن فراشنا بالورود . . أليس من الجائز أنها تسعدنى ؟ ؟ .

لكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يسافر إلى القاهرة ليشهد فيها الليلة
التي ستغنى فيها درية أغنيتها الجديدة ، وليسمع ذكريات الماضى بعد أن
استجالت إلى ألحان . وحرص على أن يكون فى أحد المقاهى العامة التي
تقع قريبا من المسرح ، حتى إذا ما فرغت من غنائها قام بجرح رجله كأنه
مخمور إلى حيث انزوى فى الظلام بجانب أحد الجدران ليلقى عليها نظرة
وهى بالسيارة ، ساعة تخرج بها من الباب متهادية مختالة بمن فيها والناس
من حولها يحيون ويمدحون وينظرون فى فضول . وقد فعل . ونظر ولم
يملا عينيه ، لكنه سارع إلى أقرب حائط واعتمد عليه حتى لا يسقط

ولو أنه أمعن النظر وحمل قليلا إلى الناحية الأخرى التي كانت فى اتجاهه وهو
واقف لرأى شخصا عزيزا عليه . لرأى سعيد . فقد كان واقفا يترقب ليلقى
عليها نظرة هو الآخر ... لكن واحدا منهما لم يقدر له أن يرى صاحبه ..

لا تستطيع الأيام أن تهادننا إلى وقت طويل .. إنها إن فعلت لكان
معنى ما فعلته أنها غيرت فطرة فطرها عليها الله . .

ولم تكن درية التي جدت بها مركبة الحظ في طريق السعادة خارجة
عن نطاق الليالي وأحداثها فقد بدأت تنثر الحزن على حواشى أنسها جاعلة
وفاة الأستاذ رضوان بداية لمنغصات يكتمها الزمن ثم يكشف عنها بعد حين
واحدة في إثر واحدة .

لم تلبس عليه الحداد ولكنها كانت حزينه النفس تحس بينها وبين
قلبي أنها فقدت أباه . . . مات مخيمر أفندى منذ زمن فبكيت على رجل
كانوا يخذعون به الحوادث وعلى من كان سببا في أنها دلفت إلى الوجود
ومشت على الأرض .

أما الأستاذ رضوان فقد كان أباً من نوع آخر ، رجلاً جعلها تدلف
إلى الوجود بهزة وتمشى على الأرض تجذبها مركبة الحظ . ولم تنس
درية على مر الليالي أن تغذى الصلة بينها وبين أرملة الأستاذ رضوان
رعاية للذكرى واعترافاً بالجميل .

وأظل مساء إحدى الليالي هادئاً ساكناً جميلاً ، اختلت فيه درية
بمعزفها تناغيه كأنها تبثه بعض الهموم . . . وكانت متفاهمة مع الألحان
غارقة في الأنغام حين دخلت عليها خادمتها لتقدم إليها بطاقة زائر . ولشد
ما راعتها المفاجأة حين قرأت اسم كمال بك ابن الجواهر جى فقالت
للخادم : اعتذرى له بأنى متعبة لا أقابل أحداً . لسكنها عسدت عن قولها
حين رآته يقول فيما كتبه : إن المقابلة تتعلق بفرن الأنسة . فحدثت نفسها
قائلة : يعنى أنها مقابلة رسمية صرف . . تتعلق بالغناء . فأذنت له بالدخول .
كان مزهواً بشبابه فرحاً به مسكران منه . يتسلح تخنثه بالمال كما تتسلح
امرأة بسيف . وكانت حقيقة المهمة التى جاء ليحدثها فيها أن له أختاً ستزف
إلى عروسها فى القريب وأن الأسرتين المتصاهرتين تطمعان فى أن تكون
الآنسة درية كوكبا دريا ليلة الزفاف . قال هذا ثم ضحك ضحكته المعروفة
التي تشير حنق النساء والرجال على السواء .

ودخلت الخادم تحمل بين يديها جهاز التليفون وتجر وراءها حبله
الطويل الأسود لأن أحداً من الناس يريد أن يتحدث إلى سيدتها .
وحياها منصور تحية المساء ثم جعل يقول : أنا على مقربة منك وأود
أن أتكلم معك فى أشياء عارضة . . . ولكن . . . نخيل إلى أنك
فى غرفة « الصالون » . . . هل عندك ضيوف . . من أى نوع ؟ ؟

ووقعت الأنسة في حرج شديد ربما أحسه الجالس . ولكنها كانت أشجع مما تتصوره كلاهما لأنها صارحته باسم ضيفها وإن أقفل منصور طريق المحادثة بحركة لا تخلو من العنف .

لم يقل لها : إننى آت ولم يقل إننى عدلت . فتركها تحسب للمحظرات المقبلة القريبة ألف حساب . وشم كال بك رائحة القلق في جو الحديث ولعله رباً بنفسه أن يعجل بالانصراف . ومضت فترة من الوقت ليست طيبة ولا جميلة سمع بعدها الجالسان في « الصالون » وقع أقدام يجد صاحبهما كأنما يريد شيئاً قبل أن يفوته . ثم بدا منصور طويلاً جامداً مائلاً أمام الباب . وتوقف برهة نظر فيها إلى من في الداخل ثم عبر وحياً تحية عادية عامة واتخذ مجلسه الذى شاءت المقادير أن يجعله حيث كان تماماً يوم وقعت بينهما حادثة لعلك تذكرها . . . وحتى كال بك كان غارقاً في الكرسي نفسه والسلسلة في يمينه يديرها على سباته فتلتف ويحلمها فتتحل ، ويتطلع مرة إلى السقف ومرة أخرى إلى رقعة السماء التى تبدو لعينيه من النافذة المجاورة .

وساد صمت كالذى يسود قبل أن تنطلق رصاصة أحد المتبارزين وكانت درية مأخوذة تبرق عيناها بالتوسل والرجاء والتحذير ولكن « منصور » لم يأبه لها . . . كان كأن دما يناديه . كانت كرامته تصرخ في داخله وكان ظل هذا الضيف ثقيلاً على قلبه ، وكان يغار منه كذلك . وتضافرت هذه العوامل جميعها ، على أنه كان لابد من اللقاء .

لم تستطع درية أن تنكر اسم الزائر . ولم يقبل الزائر أن ينصرف بعد

أن رأى القلق على وجه المضيفة ورأى منصور أن وضعه سيكون غير كريم
إن نكص فلم يسمع إلى بيت درية . وهكذا سلكتهم الأقدار فى حبس
واحد فاجتمعوا فى « الصالون » .

وكان المال فى هذه المرة هو البادىء بالعدوان على الرغم من كل شىء .
فقد قال كمال للآنسة بهيئة يظنها هو تلطفا وظرفا :

— هل نسيت يا سيدتى أنه من الضرورى المحتوم على من يجتمع
أناس فى بيته أن يعرف المتجاهلين منهم بعضهم ببعض ؟ . . .
وكانت لطمة ولو أن اليد فى قفاز من حرير . . . فأسرع منصور
بردها قائلا :

— لعل كمال بك نسى أنه رأى مرة . . . يوم كنت فى المسرح
الريفى المتنقل فى أحد الأقاليم . . . ويوم كانت الفرقة كاملة العدد . . .
لا ينقصها إلا مهرج واحد . فأربد وجهه وبحث عن ريقه فى نواحي فمه
فلم يجد منه شيئا . لكن رشده تاب إليه بعد قليل :

— آه . . . أظن أن ذلك المهرج يستطيع أن يقتل أحدا من الناس
إن شاء . . . بسيف . . . من الذهب . . . (وضغط الكلمتين الأخيرتين)
— قليل من الناس ثرواتهم فى رؤوسهم . . .

— وكثير منهم ؟ ؟ . . .

— ثرواتهم فى « الحديد » .

— تبارك الذى خلق الأرواح جنودا مجندة .

— سبحت بحمده كثيرا فى سرى منذ دخلت أنا هذه الغرفة .

— إن الطبقة الراقية تعتبر الكلام النابي في محضر السيدات شيئا
ميدا عن تقاليدها وطبعتها .

فضحك منصور قائلاً :

— حتى النصائح . . . من الذهب . . . (وضغط الكلمتين الأخيرتين)
ثم قام كال بك غير مستعين إلا بالله وخرج يجر وراءه أذيال « رصيده »
كان منصور يشيعه بنظرات تفيض مرة بالحنق ومرة بالشجاعة .

وخلال المكان للحبيبين فبدأت عينا منصور تقدرحان بالشرر ، أما هي فقد
كانت في شبه دوار كالتي خرجت من فورها من السوامة . وارتفع صوته
باتفائها في شبه وعيد :

أعندك شيء تريد أن تقوليه يا سيدتي ؟ . . . فأجابته متهددة في حيرة
انكسار وشجوب : لقد عنيتني بالغيرة . .

فما كان منه إلا أن غادر المكان دون أن يحيي أو يتلفت .

وتطول فترة المغاضبة إلى مدى أسبوعين فلا لقاء ولا حديث بالتليفون
تنصرها الحوادث أو تخذلها في هذه الفترة فتشغلها تماما عنه بشيء مهم .
أو مرض أمها .

كانت من الأمهات اللواتي يحرسن أبناءهن طول الطريق ، ويسهرن
لي قافلتهم طوال الليالي ولو دفعن الثمن من نور أعينهن وخفقات أفئدتهم .
من أجل ذلك سهرت درية طويلا إلى جانب الينبوع . . . ينبوع
لحان ! ! ورأته بعينها وعيون كثير من الأطباء وهو يغيبض قليلا قليلا حتى
يف تماما في إحدى ليالي الشتاء . كانت تبدو كأنها مرتاحة ساعة جادت

بأنفاسها لأنها نجحت في إرساء دعائم الأسرة . ولكن بقي لها مطلب واحد على الأرض . . . حتى بعد أن تخلت عن الحياة . . . كانت تقول ورأسها مائل على الوسادة وعيناها شبه مغمضتين : الوطن الوطن عزيز لا تنسى يا درية أن رفات أبيك مدفون هنالك في أرض الصعيد . . . (ثم انطفأ الشعاع ونفذت الوصية) .

وبقيت ذكرى الليالي الحزينة جاثمة على قلبها فترة ، غير أن هذه الأحزان فتحت طريق العودة من جديد أمام منصور ، فلقد وصلها أيام مصابها وزارها وواساها . ولم يكن الحديث الذي يتداولانه في هذه الفترة خارجا عن النطاق العادى ولكن عينيها كانتا تقولان له أشياء كثيرة :

قالت له أول ما رأيته : إن الأحباب دائما ينسون ما بينهم من خلاف إذا ألت بأحدهم ملة . ثم انفجرت باكية وكانت تبكي ليلتئذ بنوعين من الدموع في شوط واحد . ثم قالت له بنظراتها مرة أخرى في يوم من الأيام : إننى أحس ساعة تدخل على عزلتى وتفتحم وحدتى وأحزانى ، أن أخت يحمل مزية فوق معنى الأخوة يمد إلى يده لأعتمد عليها وكلاما غير هذا كثيرا . غزير المعانى توحيه العيون إلى العيون في طرفة قصيرة . حتى كان بينهما موقف حاسم :

كان هو متضايقا من ذلك الأمر المعلق ، أما هى فكانت فى سكرة المجد غير منتبهة إلى حياتها الشخصية . وكانت لا تزال حتى هذه اللحظة تروض قلبها على أعمال شاقة ، فتحرمه عامدة من أشياء يصرخ هو ملحا

في طلبها كما تحرم الأم وليدها العزيز . قال منصور وحزمه المألوف يطغى
على جوارحه كلها :

أريد أن أعرف نهاية هذا الشوط الذي نجد فيه متسابقين
أعني أريد أن أعرف الثمن الذي نجهد قلوبنا من أجله ونشمر أذيالنا
للجري في سبيله ؟ . . .

فأطرقت تنظر إلى ظهر كفيها وما لبثت أن أجابته .
آه . . . لقد بدأت العاصفة تهب . . . وإني أخاف بوادرها إذا
لاحت على وجهك (وابتسمت جاعلة من الابتسام توسلا وشفاعة) . .
هنالك نوع من العواصف لا ينقشع إلا إذا حطم واقتلع . . .
على أننا تكلمنا كثيرا في ذلك . . . و . . . لا أعرف ماذا أقول..
منصور . . . أنا خائفة . . .

ونظرت . وكانت عيناها ساكنتين لا يطرف فيهما هذب واحد .
وبدا مغناطيسهما يخوض إليه في الدمع قبل أن ينصب عليه فأحس حنانا
جارفا عميقا من ذلك النوع الذي يغفر الرجال بسببه لبعض النساء زلة
كبيرة . لأن شعرا أسود وملابس حداد ووجهها ناصعا مستطيلا متوسلا
راجيا ، وعينين ساجيتين تنظران من خلال الدموع وحبا واستسلاما —
كل أولئك كانت كفيلة بأن تجعله يسجد . لكنه تريث وسألها في رفق :
وم تخافين ؟ . . . إذا كان وجودي في نطاقك يزعجك فأنا على
امتعداد لأن أرحل بعيدا عنك . . . ياسلام . . . أتظنين أنني أبخل عليك

ببضعة كيلو مترات من الأرض تقوم بيني وبينك ، إذا كنت سأمنحك
بها السعادة ؟ . . .

فأجابته بهمس منغم عذب شارد :

— منصور . . .

—

— أحبك . . . وأخشى أن أفقدك . . . (فأجابها غير ناظر إليها)

— وكيف ؟ . . .

— حياة أمثالنا يا صديقي كثيرة الشعب . . . حياتي يا منصور

كالميزانية المرهقة لا آمن معها أن يطغى فيها مطلب على مطلب !

كانت مطرقة لأنها لا تطيق أن تتحمل غنيته ولا كنها مع ذلك لم
تسمع منه ردا بل كان محولا عنها وجهه . فسألته وهي كما هي :

— ألا تسمعني ؟ . . . ما بالك لا تجيب ؟ . . .

فما كان جوابه إلا أن انتفض واقفا ثم قال لها بوجه مصمت لا يكاد
ينم عن شيء : وداعا . . .

وانطلق كأنه سهم . وكانت هي أكثر الناس فهما لمعزى هذه الأعمال

وبخاصة إذا صدرت من منصور . فنادته فلم تحظ برد . فانطلقت في إثره

تعدو وتناديه في دعر وجزع حتى يظن من يسمعها أنها تريد أن تحول

بينه وبين الانتحار . وأدركته في آخر الردهة قبل أن يخرج من الباب

الذي يصب في الحديقة فتعلقت به وقالت له في توله الحائف من أن يفقد شيئا :

— موافقة . . . إنني موافقة . . . أرجوك أن تعود معي . . . حتى

تتكلم في التفاصيل . . .

ثم رجعا إلى مجلسهما الأول :

— نعم يا سيدتى . .

— لا شيء يا أخى . . . ألسنا متفقين ؟ . . .

وغادرت مقعدها ووقفت أمامه تنظر في عينيه . . . كانت كأنها تريد أن تقرأ فيهما الغيب أو تعرف منهما المستقبل . وغرد الببل في القفص المعلق في الشرفة فذكر كلاهما حديثا قديما . . . فبدأ فمها يهوى قليلا قليلا نحو فمه الذى كان متأهبا للقبلة .

* * *

لقد رسما خطة المستقبل فيما مضى من الزمن جزءا جزءا كلما دعتهما إلى ذلك إحدى المناسبات . وكان فيما رسماه واتفقا عليه بعد جدال ولجاج أن تعزل درية الحياة الفنية العامة . وأن تقنع بما سخط به عليها الدنيا فتخلص للحبيب الزوج ، ثم للحبيب من الأبناء في حياة الأمومة .

ولم توافق درية على إعلان نبأ الخطبة كما اقترح منصور حتى تسافر إلى الصعيد وتعود . فسألها في شيء من القلق عن سبب هذا فأجابته قائلة بعد تنهدة خفيفة : لأننى أريد أن أصفى حساب الأحران نهائيا لأستقبل ضوء الفرح بعين ليس فيها أثر للدمع .

وكان فحوى ما أرادت قوله هى أنها بنت مقبرة جديدة تناسب رفات أبويها وأنها ستسافر لتشرف على نقل العظام من دار الخلود إلى دار الخلود ثم إنها لا تحب أن يكون عمل مثل هذا فاصلا بين ليلة الخطبة وليلة الزفاف .

فاقتنع هو ثم عاد فاقترح أن يرافقها في الرحلة . لكنها أدت عدم
ارتياح جماله يعدل عن رأيه بسهولة .
وكانت ليلة من ليالى الصيف ...

لم يكن فيها قمر ... ولكن نجومها كانت زاهية مضيئة تستأثر بعيني
كل ساهر وكان القطار الفاخر المسافر إلى الصعيد يطوى الأرض طيا لأن
شوطه طويل يغريه بالتعجل والسرعة ، كما أنه غير آبه بالأوطان التي يمر
عليها لأنه لاوطن له . من أجل ذلك لم يتوقف إلا في القليل من المحطات .
وانتصف الليل أو تجاوز نصفه بقليل ، وبدأ نسيم مثل هذه الساعات
يتدفق فتتقيه الأجسام الرقيقة فكان ذلك مدعاة إلى أن تغلق درية عليها
شباك المقصورة . ثم ألقت برأسها إلى الوراء حيث أسندته على ظهر الأريكة
وأسبلت أهدابها . وكان صوت الموسيقى الرتيبة التي تؤلف الحانها العجلات
والقضبان هو كل ما ينصب في مسمعها في هذه اللحظة . لأن كثيرا من
المسافرين قد بدأ النوم أو السأم يتسلل إلى نفسه أو عينيه .

ووقف القطار في المحط التالى وفتحت درية عينها لأنها عجبت أن يمر
الوقت بمثل هذه السرعة ، ورجحت أنها نامت وألقت ببصرها
إلى الخارج فلم تجد أثرا للعمران بل رأت مناظر تدل على أنهم في محطة
صغيرة ليس من المقرر أن يقف في مثلها القطار ... هناك ظلام ونخيل
وسكون . وأنفاس كأنها تلهث خارجة من فتحة الصهريج . وعامل
« البلوك » ومعاون المحطة . وموظفو القطار يتكلمون ... ولا شيء
إلا هذا ...

فأسلمت أهدابها ثانية . واعلمها قالت بينها وبين نفسها : وما الذى
يعننى ؟ . وانقطعت الأصوات بعد فترة وعاد كل موظف إلى مكانه .
وخيم الصمت مرة أخرى . ولكن درية لم تشأ أن تهتم لأنها تؤثر ألا يفطن
إليها من عسى أن يعرفها .

وكان هناك على الرغم من كل هذا شاب يغدو ويروح على رصيف
المحطة يفكر فى حيرة وشروود ويداه معقودتان على صدره . وبعد
شوطين أو ثلاثة أشواط توقف فجأة أمام شباك درية وأحس كأن الأرض
بدأت تدور بل خيل إليه أن القطار نفسه قد تركه وسار دون أن يأذن
له بالسفر .

وما أنجلت عنه هذه الغمة حتى بدأ ينظر إلى النافذة من جديد . فألقى
وراءها امرأة يكاد يقطع بأنه يعرفها وإن كانت تلبس السواد ، وعلى الرغم
من أنه يطالع صفحة خدها ويرى وجهها من جنب . ربما كانت هى وربما
كانت صورة منها مرت بها الأقدار من هذه المحطة لتشير ذكريات كاد راضى
يتغلب على مدفونها .

وتراجع إلى الوراء قليلا لكنه ظل تجاه النافذة . ثم انحنى إلى الأرض
فالتقط ثلاث حصوات صغار وقذف بإحداها فأصابت زجاج نافذتها برفق
ولكنها لم تغير جلستها . فأردفها بأخرى فلما أحستها نظرت بكل وجهها
إلى ناحية اليسار حيث كان الحبيب القديم مائلا فى الظلام كأنه تمثال للتلف
والحيرة . . وبعد هذه النظرة استطاع أن يتأكد ولم يبق عليه إلا أن يقدم .
وطرق باب مقصورتها برفق ثم فتحه وانحنى محيا وهو يخطو نحوها

الخطوة الأولى كان كل شيء فيه مضطربا حتى أمعاؤه لكنه حاول جاهدا أن يخفي ذلك عنها . قال :

معذرة ياسيدي فقد رأيت لزاما على أن أنبه الوحيدات من المسافرين إلى تعطيل القطار قليلا حتى لا يركبهن القلق

وفرع من عباراته ثم انتصب في وقفته كأنه جندي ، وشرع ينظر إليها كأن المفاجأة لم تأخذه إلا في هذه اللحظة فحسب . وبدأت أزرار سرته النحاسية الصفراء تلمع تحت ضوء المصباح فتكاد صورة القاطرة المرسومة عليها تبدو لأي عين . أما درية فقد كانت تحت سلطان مباغته حقيقية بحيث أصبحت شبه عاجزة عن أن تحمل رأسها الذي كان ملقى على ظهر الأريكة وكل الذي استطاعت أن تعمله هو أن تحمل في بذهول كأنها مأخوذة حتى قال لها راضى بصوت مهموس : لعل غير مخطيء . فأجابت دون أن يتغير وضعها ولا أن يعود صوابها :

— مطلقا ولكن

— ولكن ماذا ؟ فأشارت بيدها إليه ليجلس ثم اعتذرت لتقول :

— ولكن لم تفعل الأقدار كل هذا ؟

— ماذا تقصدين ؟ ؟

— أقصد أن أقول : أهذا أنت يا راضى (ونظرت وقطبت كمن تحاول أن تفحص كل ما فيه ولكن ملاحظتها كانت حبا يخالطه شفقة) ماذا يفعل بنا الزمان ؟ هل تزوجت ؟ ومن أبنائك ؟

هل تغيرت أنا هكذا مثل ما قد تغيرت . . . آه . . . أرجو أن تكون
نسيت الماضي . . . هل أنت موفق في هذه الوظيفة ؟ . . . لعل أخباري
قد انقطعت عنك . . . الأيام كفيلة بأن تصلح بيدها ما أفسدته .

كان قريبا منها على الأريكة ولسكنها لم تعطه فرصة ليتكلم . أما كلماتها
فقد كانت تخرج بعصر كأنها تتكلم وهي تجرى . كانت وطأة الذكريات
شديدة عليها غير أن حنانها ساعة رأته خالطه شيء من الرثاء ففسد الحنان
حتى لسكنها كانت تخطب في تأبين شخص عزيز . ولعل راضى نفسه
أحس بطعم الموقف إحساسا صادقا حقيقيا ، فعرف أنها لا تعد رؤيته شيئا
سيئا ولا تعدها كذلك مفاجأة سعيدة فأجابها في جمود تخالطه خيبة الأمل :
أستطيع أن أجيب عن كل ما سألتني عنه بجواب واحد
وحتى هذا الجواب لا يعدو أن يكون كلمة واحدة . . . هي . . . لا . . .
وساد صمت . . . وبدأت أصوات جناب الريف تصل إلى آذانها من
الحقول ونقيق الضفادع يتناهى إليهما من التربة القريبة . ثم نظرت درية
إلى الناحية الأخرى وأولته صفحة خدها واتجهت نحو النافذة والليل
والظلام وشرعت تقول كأنها تلقى قطعة « محفوظات » وعثها عن ظهر
قلبها جيدا وكان في نبراتها معنى من القسوة أول ما قالت :

أنت وحدك المسئول عن كل ما وقع . . . لم تركت الأيام هكذا تفصل
بيننا طويلا . . . لم لم تكتب إلى في طنطا أو تحاول مقابلي بدل أن كنت
تقابل خادمة مدرسة البنات ؟ ؟ . . . (ورقت حواشيها قليلا) ولكن . . .
لا فائدة في استعادة أسباب الفشل ما دامت قد غابت مع الأمس المولى . . .

هل كان من واجبي كامرأة أن أأخذ نحوك خطوة إيجابية ؟ . وقلبت
كفها وهي تقول : لا . (ثم عاودتها نبراتهما القاسية) ثم لماذا هذا الترهيب
من أجل امرأة ؟ . أليس هناك إلا « نسخة » واحدة من كل فتاة . .
بيننا كثير من البارعات في تطبيب الجروح .

وسكتت وذكره قولها هذا بما سمعه من خادمة المدرسة ليلة قابلها
المرأة الأخيرة فأطرق ولم يستطع أن يمسك دموعه ، لأنه أحس أن كليهما
طلبت منه رجولة أعلى من التي أبداهما . . . فرثى لنفسه . واستدارت إليه
درية فرأته على هذه الحال . وبدأ لها أن تعطف عليه بشيء ، وقد كان هو
مع الأسف في موقف يستطيع أن يتقبل فيه الصدقات ، ولكنها تراجعت
وحالت بين وجهه ووجهها حين أحست لفتح أنفاسه وقالت له :

لا . . . عد إلى مجلسك من جديد . . . بيني وبينك رجل . . .
وعهد . . . (وبدأ لها كأن عيني منصور تلمعان في الظلام هنالك على
الرصيف) . وانتفض راضى من مكانه ليغادر المقصورة ، ولكنها هبت
واقفة وأمسكت بثيابه وأخذت تقول في تهديد وحنان :

راضى . . . أرجوك أن تنسى . . . تزوج . . . تزوج يا راضى . . .
تزوج ، فإن الذى خلق الجروح قد خلق معها البلم . . .

فاستدار حتى واجهها وألقى عليها نظرة زحمتها المعانى فجعلتها غير
مفهومة وقال لها : نعم يا سيدتى . . . سأتزوج . . . وسأبنى . . . وداعا
إلى آخر الحياة . . .

ولم يمض وقت طويل حتى سمع من فى القطار دقات ناقوس عظيم

يجلجل في سكون الليل وهو يقترب شيئاً فشيئاً ، وقد عرفوا فيه صوت
ناقوس فرقة المطافئ . إنها في طريقها إليهم لتحملاً بخرطومها الضخم من
الترعة القريبة صهريج القطار الذي فرغ من الماء فتعطل . وكانت هذه
النجدة من بنات أفكار معاون المحطة . الحبيب القديم . كأنما ألهمه
ذلك الموقف الحشن الذي كان بينهما كيف يسير القطار بمن عطلت
ركب حياته ! !

قال لها منصور يوم قابلها في القاهرة : ها أنت ذى يا صديقى قد ختمت
الأحزان هنالك بدموع ذرفتها في أرض وطنك ، فلنفتتح عهد السعادة
بإعلان خطبتنا ، فأجابته قائلة :
ولنعلمن معهما شيئاً آخر ، هو أن الحفلة الغنائية القادمة ستكون
خاتمة الحفلات في حياة غنائى .

وكان ذلك . وتسامع الناس بالخبر . وخيل إليهم أن يحتشدوا جميعاً
في صعيد واحد ليروها وهي تغنى للمرأة الأخيرة ، التى ستهجر بعدها المسرح
لتلزم البيت ولتغنى فيه إن شاءت لأشخاص معدودين . فيهم رجل واحد
والباقي صغار . . . واستدعت الشاعرة العاثر الحظ لينظم لها أغنيتهما
الأخيرة .

كان في غرفة الاستقبال ينتظر دخولها ، قائم المزاج ثقيل النفس
يوسوس له شيطانه أن حظه يتعقبه في كل مكان حتى ولو هرب منه في
بيوت المحظوظين . . . وكان شارد الطرف شارد اللب في وقت واحد

ينظر جامدا كأنه تمثال إلى تمثالين قد وضعاً على إحدى المناضد يمثلان طائرَيْن يشرب كل منهما من كأس أمامه . . . كانا يترقصان على التعاقب كأنهما يشربان ، ولم يكن في الكأس التي ينكبان عليها شيء من الماء ، وإنما كان سائلا صنعته الكيمياء لا يطفىء الظمأ ولا يحقق الهدوء .

وعلقت بهما عين الشاعر مدة لا تتحول عنهما حتى نسي نفسه ومجلسه فبدأ يحرك رأسه معهما حركة تجانس حركتهما كأنه انقلب إلى طائر ثالث . وحانت من درية التفاتة قبل أن تعبر العتبة ، فرققت على فمها ابتسامة خفيفة حين رآته على هذه الحال ، ثم استرجعتها وحيته فأفاق من الغيبوبة . كانت جالسة اتجاهه تماما لكن عينيها لم تتحولاً عن التحفة الجديدة أعنى عن الطائرَيْن اللذين عاونا «سعيدا» على أن يكون هو البادى بالحديث :
— فكرة جميلة ، هذه التي خلقتها الكيمياء . . . لكن . . .
(فسألته مبتسمة) :

— لكن ماذا . . . هل يعترض الشعر على الكيمياء في شيء ؟
— نعم . . . ليس بين طيور الأرض طائر واحد حظاه مثل حظ هذين التمثالين .
— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنه رمز بهما إلى حظوظ الناس .
فنظرت إليه بعينين فيهما اهتمام وإنصات واستزادة .
— أقصد . . . أريد أن أقول : إن بين الناس ناس يقفون في الحياة

مثل هذا الموقف ... ينكبون على شيء يظنون أنه ماء ، فلا هو يرويه
ولا هم يرجعون ...

فقلت برثاء يخالطه حنان . أو بحنان يخالطه رثاء :

— مساكين . .

— جدا ... ولو أن أحدا من الناس يحس دائما بأنهم مساكين لكان
من المحتمل أن ينتج هذا العطف شيئا يمنع ... شيئا أيا كان يخفف عن
قلوبهم بأسائها .

— وهل الناس مسئولون عن رجل أو امرأة ينطوى كل منهما على
نفسه فلا يكاد يحس أحد بجراحه . حتى إذا ما قتلتهما الجرح جأرا باللوم
والشكوى وهما في النزاع ... بعد أن يفوت الأوان ؟ !

ونظر إليها سعيدة فأنماها غير ناظرة إليه . ورأى ظلالا عبقرية غريبة
تتراقص على وجهها الفاتن وكانت بينها ولا شك ظل من الحب والخيرة .
فأمسك قلبه حتى لا يثب من بين أضلاعه . يا قدرة الله !! ... اعلمها تعنيه ...

تعني سعيدا هذا الذي يجمعها ويجمعه المجلس . وإلا . فمن تعني ؟ ...

— أكنني أستاذن فأسأل سيدتي : أي النتيجة أظن أنها وقعت على

هؤلاء الذين يلعقون جروحهم ، الموت بالجرح أو الموت بالسخرية ؟

— هذا هو الذي تتفاوت فيه الناس ... إن كلمة تقولها لشخص

في الساعة العاشرة قد تؤتى مالا تؤتیه هي نفسها إن قلتها له بعد
خمس دقائق .

— أصبت يا سيدتي ... إنها فرص .

فحملت فيه ، وذكرت منصورا . ونسيت « راضى » الذى كانت
تهنيه بكل ما قالت له على حين ظن الشاعر أن حبا غامضا بدأ يحبو فى طريقه
نحو قلبها وأنها تنتظر منه كلمة .

ثم تغير الموقف تماما بعد لحظة قصيرة حين انتفضت كأنما صب على رأسها
ماء ، وأعربت له عن تفاصيل ما استدعته من أجله . وخرج سعيد بعد
مدة غير طويلة ليبحث عن مكان يأوى إليه فينظم لها فيه آخر أغانيها .
وحات الليلة الأخيرة واحتشد لها الناس

بدأت فرقة الموسيقى فكانت كأنها تنتحب . وبعض الأوتار كانت
كأنما يقطر منها الدمع ... أما المكان فقد بدا وكأنه جد حزين . كان
يئن أينما رقيقا مثل الحائر المتهافت . وكأن الكون كله ينصت لهذه التى
تودعه بأغنية .

وأخذت تغنى بما نظمها سعيد ، بتلك المقطوعة التى بث فيها حبه
ودس فيها يأسه وودع بها عهدا لم يكن عظيم الخصب بالنسبة إلى قلبه .
لكنه تمنى لو أنه دام ...

وامتد الليل والسامعون يضحجون ، والصوت يتصيب من كل مذياع
وينبعث من كل نافذة وباب . وكانت هناك عروس لا تزال فى شهر العسل
نقلت المذياع إلى مخدعها فلما أدارت مفتاحه سحرها الصوت وأسرتها
المعاني . وكان زوجها إلى جوارها فى مبادل جديدة تفوح من بين أردانه
عطور الزفاف ، فلما نظرت إليه زوجته ألفتة مسحورا هو الآخر إلا أنه
كان تحت قوة أشد من التى تعانها لأنه أسبل عينيه قليلا قليلا حين سمع

الغناء وأخذ يدنو من عروسه رويدا رويدا كأنه ثمل ويتحسس بفمه
طريقه إلى شفيتها . وقبل أن يتلامس الثغران بكى كأنه طفل ثم ألقى
رأسه على كتفها وأدار ذراعه حول عنقها وقال لها : مالك تترددين
هكذا ؟ ... امسحى قلبي بحنانك ... فقد كاد يتلفه الحب .

فأقبلت عليه تمسح رأسه وخديه ، وقلبه وشفتيه في وقت واحد ،
وكانت تقول له بين كل قبلة وقبلة :

لم يخدعني أبدا ... إن قلبي غير كذاب ... كنت واثقة من أنك
تحبني ... جدا ... وإن أظهرت لي خلاف ما تبطن ...

كان هذات الزوجان في الصعيد ، يقضيان شهر العسل في مسكن
قريب من المحطة . وكانا يعرفان الوقت دون أن ينظرا إلى الساعة لأن
صغير القطارات الذاهبة والآية كان يتناهى إلى سمعهما فيجعل راضى أصابعه
في أذنيه وهو ينظر مبتسما نحو زينب .

obeykandi.com

وعاشت درية في أيام حلم جميل . . .

، تلك الأيام والليالي التي تسبق زفافنا في العادة والتي توشىها يد الخيال
كل طريف فاتن . والتي تحفل بالمفاجآت يهديها كل واحد منا إلى الآخر .

وفي ليلة من هذه الليالي أعدت لخطيبها مفاجأة .

وقفت بها سيارتها على بابها لتهمج عليه في عش « العزوبة » دون إنذار
ولتقف معه أمام كل مرفق من مرافق بيته البسيط ثم يرسلان ضحكة تم
عن السعادة .

ولم تقرر الجرس . وإنما وقفت تنقر بأصابعها على بلور الباب نقرات
منعمة سمعها منصور وهو يعبر الردهة في طريقه إلى إحدى الحجرات
خفف يفتح لأن خادمه كان في المطبخ فلم يسمع شيئاً .

وألقى نفسه أمامها وجها لوجه . . . وركبته المفاجأة فلم يتكلم ولم يتنسم .
وكانت ضحكاتها الناعمة الأخادة لا تزال بقيّة من صداها تجلجل على بسطة
السلم . ولم يفق منصور إلا بعد أن عبرت الباب وأخذت تخطو في الردهة
خطواتها الرابعة ، فقال : هذه أروع المفاجآت بلا شك . فأجابته في تلمظ
وابتسام : لا تدعني أتخير . . . قدنى سريعا إلى غرفة الصالون من فضلك .
واستطاع أن يشرب الشاي في ذلك المكان المتواضع ، واستطاع منصور
أن يؤكد أن هذا الحى سيبيت ليلته هذه وهو يزهو على بقيّة أحياء
العاصمة ومن بينها الحى الجميل الهادى الذى يربض بين حدائقه منزل
الآنسة درية . . .

وكان لابد من جولة في أرجاء المنزل لتستكمل المفاجأة سحرها المنشود
ووقف منصور على باب إحدى الحجرات وأخذ يدير أكرة بابها بيد
بطيئة ووجه معبر مشرق وهو يقول : هذه هى حجرة نوحى يا سيدتى . . .
انظرى . . . هل يروقك نظامها ؟ . . .

كانت خطواتها متقاربة في رعشة ودلال ، وتستطيع أنت أن تعرف
كيف كانت الخواطر تنساب في رأسهما . لكن خاطرا واحدا كان
من المتفق عليه وكان لابد أن يقع . . . وذلك هو القبلة .
قطع الأثاث في الحجرة بسيطة قليلة ، تنطق بأن صاحبها منظم ،
نظيف ، متوسط الحال . وهناك بعض صور شمسية معلقة على الحائط
ألقت عليها درية نظرة من بعيد وهى واقفة ثم همت بأن تستدير لتخرج
لكنها عادت فتوقفت لتلقى نظرة أخرى على صورة كانت على الحائط .
فوق رأسها حيث كانت تقف ، فلم تتمكن من أن تراها .

كانت الفتاة في ربيع العمر . نجح من صورها في إبراز ملامحها المتفائلة المتوددة ، وثوبها الذي يرجع طرازه إلى خمسة عشر عاما . كانت كأنها تناجي كل من ينظر إليها . بل هنالك ما هو أبعد من ذلك بالنسبة لفمها المبسم يخيل إلى كل من رآه أنه سينطق فورا بكلمة واقفة على الشفتين ! ! وذكرت درية شيئا بعيدا . وخفق قلبها لهذه الذكرى ولكنها ابتلعت ريقها واستردت هدوءها وسألته :

— من صاحبة هذه الصورة ؟ . .

— هل جعلتك تحسين شيئا من الغيرة ؟ . .

— ربما .

— إنها لا تستطيع . .

ثم اقترب منها حتى وضع يده على إحدى كتفيها ووصل حديثه قائلا : سأخبرك باسمها حين نأخذ مكاننا في حجرة الاستقبال . ولكنه فرك كفيه هناك وفتح حديثا طال أمده ، تناول به الجو والحي والزيارة وروعة المفاجأة . وجعلت هي تنصت وتفحص حتى رأت ظلا من القلق متحيرا على وجه منصور :

— لقد نسيت شيئا . . . نسيت أن تخبرني من تكون هذه الفتاة ؟

— آه . . . لم أنس ذلك إلا لأنه غير مهم . . . لقد ماتت على كل

حال . . . ولو كانت الحياة مقدر لها وامتد بها العمر . . . لسكانت اليوم

قد . . . قد . . . جاوزت الثلاثين .

ففتحت درية عينها في شبه زعر وقالت :

— كذا ؟ . . .

— ماذا يعني لنا من الأموات يا عزيزتى ؟ !

— يعني لنا منهم أنهم كانوا أحببنا فى يوم من الأيام . . . وأنهم . . .

(وفتحت حقيبة يدها لتخرج منها منديلا ولكنها ظلت ناظرة إلى جوفها)
وأنهم جادوا علينا فيها بلحظات من السعادة . . . ربما كنا فى ذلك الوقت
أشد البائسين حاجة إليها .

فشرد ببصره نحو السقف . وأقفلت هى حقيبةها ونظرت نحو الباب
وبدا جو الحجرة يشغل هواؤه كما يشغل قوام السوائل . وأخذ هو نفسا
طويلا قبل أن يتحدث ، ثم تحدث كما يتكلم وسيط النوم :

— كان اسمها . . . نادية . . . لم تكن حبيبة . . . ولم تكن زوجة .

وإنما كانت حبيبة وزوجة فى وقت واحد . . .

— لمن ؟ . فلم يجب لكنه أشار بأصبعه نحو نفسه ، وبقي جامدا

فى جلسته كما كان . واستأنف حديثه على الطريقة الأولى :

— أذاقت قلبى لونا من الحب كان صارخ الخلاوة . . . فلما تخلت

عنه تركته عاجزا عن أن يذوق الطعوم . . . كان يحس كأن كل شىء

فقد خاصته وأن الأرض فى سبيلها إلى أن تتغير . . . حتى شعرت كأننى

محاصر . . . فى قلعة من الوحشة والوحدة والنسيان . . . لم يستطع

أن يقتحمها على إنسان فينجبى من الأسر . . . إلا . . . أنت . . .

— زرتك فى منزلك للمرة الأولى لأجعلها مفاجأة لك . . . فأعدت

لى الأقدار مفاجأة أعلى وأروع . ثم لمعت عيناها بالدموع وقالت بهمس :

— إنك لا تعلم يا منصور أنك زوج صديقي . . . آه . . . سأرقص على قبرها يا صديقي . . . مالى أذكر كل شيء حتى كأنه وقع أمس . . . كانت تحبك . . . كانت تحدثني عنك فتنسى أنى أخطبها وتشمل حتى كأنها تناجيك . . . ما بال الأقدار تسخر منى هكذا ؟ . . . سأحس فى ليلة قريبة أنها هى التى تغلق علينا باب مخدعنا ثم تنحنى عند الباب وتقول لنا : طاب ليلكم وسعدت أحلامكم . . . ولكن . . . وصرخت فيه : لم كتبت عنى كل هذا ؟ . . .

— كان ذلك فى ربيع العمر . أيام كنا عاطفة خالصة حرة طليقة لا تستطيع قوة على الأرض أن تتحكم فيها . كنت موسيقيا هاويا وتاجرا صغيرا حين أحببتها فاشتركت مع الموسيقا فى انصرافى عن العمل فكسدت تجارتى وأصبحت من المفلسين . لكن بسماتها شجعتنى وتزوجنا فى القاهرة . واستقبلنا شهر العسل بنفقات عادية ثم ارتحلنا إلى الإسكندرية حيث وظفت فى خفر السواحل بمرتب ضئيل لكن الحياة كانت دائمة البسات . . . وأنجبنا ولدنا الأول الذى لا يزال فى بيت الأسرة بالإسكندرية وفى رعاية جدة وأعمام وعمات . . . وقد تركته هنالك بعد أن خطفها الموت . . . وسكت وشرد . ونديت عيناه بدمع يسير . وأحست درية أنه سيبدأ بوصف الليلة الأخيرة التى قضاها ساهرا بجوار فراشها حتى قضت . . . ثم أسبل أهدابها . . . ثم قبل فمها البارد .

ولم تشأ أن تسمع هذا ، وما كانت لتحمله ، فانتفضت واقفة . وقالت بلهجة فيها عتب وحب وغيره وحيرة :

منصور . . لا بد أن ننظر في قضية زواجنا مرة أخرى ، ثم انصرفت .
لم يكن هنالك أفسى على قلبه ولا قلبها من هذه الأيام التي توالى
عقيب هذا الحديث . زارها في منزلها مرة ومرة ثم باعد ما بين الزيارات
بعد ذلك ، ولكنها كانت لا تجيبه إلا بالدموع ، حتى إذا ما يئس وثار
فيه الشخصية العارمة قاطعها . وعاشت وحدها في عزلة نسجتها حول
نفسها امتدت ثلاثة شهور توقف فيها الحبيبان عن النجوى والحديث
وتأثيث البيت وتبادل الأمانى .

وفاحت رائحة الخلاف حتى انتشرت في الخارج وتناولها الناس بطريقة
الناس فأكد بعضهم أن الخطبة فسخت نهائيا ، وكان ذلك من جانبها
أعنى أنها هي البائدة . وعلموا ما قالوه بأن لها في الحياة غيتين لاثنتين لهما :
الشهرة والمال ، وقد نالت كليهما ، فماذا يعنينا من أمر الرجال ؟ ... وقال
أناس : إن منصورا اكتشف فجأة أنها تحب رجلا غيره ، ومن هذا
السعيد المحظوظ ؟ ... وتهامسوا بصوت جد خافت : هو كمال بك ... ابن
حسن بك الجواهرجى .

وقال فريق : لا... لا... بل وقع العكس ... إنها هي التي اكتشفت
بغته أنه يحب غيرها ... فتاة من حديثات السن الجميلات ... اللاتي كان
جسدهن لمن جواز مرور . وقد تعقد الأمر ، لأن مخلوقا ثالثا ظهر
فجأة بين الموسيقى وخليته الصغيرة ، وهذا المخلوق لم يتنفس بعد أنفاس
الحياة .

وهكذا طال عليهما الليل حتى صار شهورا . سكت كلاهما حائرا سادرا

لا يأخذ ولا يدع . وبقيت المسألة معلقة في عجلة الزمان يدور بها في حلقة مفرغة حتى كانت إحدى الأمسيات :

حلت إليها الخادم بطاقة شخص عجبت لإقدامه على زيارتها وراعيها منه صفاقة ظنها شجاعة ، وكان ذلك الزائر هو كمال بك . كانت يد درية ترتجف وهي ممسكة بالبطاقة لتقرأ فيها « يرجو التفضل والسماح بالمقابلة » ودعتها غرابة الموقف إلى أن تصابر نفسها حتى ترى غوامض الموضوع ، وكان ذلك ، ودخل الشاب كما تعود قديما يعيش متشاغلا كأنه يحجر خزانة من الحديد ، ثم حيا وجلس .

ومرت لحظات صامتة لا حس فيها ولا حركة إلا السلسلة الذهبية التي يديرها الزائر حول سبابته لفا ونقضا ، وإلا تغريدة أو اثنتين جاد بهما البلبل الجديد الوارث للقفص في الشرفة بعد أن مات خلفه أثناء الليل . وفي ليلة من لياليها الموحشة ، التي نبتت فيها القطيعة بينها وبين منصور . انقضت هذه الفترة قبل أن يقول كمال بك :

— كثيرا ما يحس الإنسان أنه يعطى أكثر مما يأخذ . ولكنه يشعر مع ذلك . . . بالسعادة . فقالت بجفاء :

— لى مطلبان . . .

— أولها ؟

— أن تقلق فوراً دوران هذه السلسلة لأننى أشعر بالدوار كلما راقبتها ! ! فجمعها سريعا ووضعها في أحد جيوبه وبدأ على وجهه الامتثال . مقدما للأمر الثانى . لكن في هيئة لا تخلو من التكبر المستور .

— والمطلب الثانى هو أن تتخلى عن بعض عادات قديمة اخترتها لنفسك وجعلتها حلية لحديثك . . . هى الغموض الذى يكتنف كل ما تقول . .

— أستطيع أن أوضح الواضح مرة أخرى فأقول : إن المجتمع المصري الراقى يتفقدك منذ أشهر فلا يجده . وإنه يسأل عنك بكل أفراد . . . وهو مع ذلك يشعر بالسعادة حين يسأل عن القى لا تفكر فيه . .

وشمت درية من حديثه أنه يريد أن يطارحها الحب من خلف الستار ورددت بينها وبين نفسها قوائمه « وهو مع ذلك يشعر بالسعادة حين يسأل عن القى لا تفكر فيه » وصاد صمت طويل ثقيل لم تجد فيه شيئاً تفعله إلا أن تتنحنجح وتلمس غداً شعرها ، ولكن كمال بك أعفاهها من العناء لأنه شرع يتكلم عن أحدث طراز من السيارات ، ثم جره الحديث إلى ثمنها ، ثم جره الثمن إلى أن يقول :

— على أن هنالك أشياء يا سيدتى يستطيع الإنسان أن يمنحها من الثمن فوق ما يطيق .
ولكنها لم تجب .

— ألا تجدين فى كلامى هذا معنى يستحق الرد ؟ !

فنظرت إليه متفلسفة متكبرة حزينة :

— أتتكلم عن المال ؟ . . . فى مقدورى أن أضع فوق ظهرك أثقل الخزائن قبل أن تقوم من مقامك . . . على شرط . . . أن تمنحني نوعاً من الراحة هبت على نسائته فى بعض أيام حياتي ! !
وسكتت . وأطرقت . وكانت واضعة فخذاً على فخذه . منطرحاً على

الكرسى غارقة فيه كأنها مرهقة . وخطر لها منصور وأحسّت أن في الموقف شيئاً من المساومة فبدأت أعاصير الغضب تهب على وجهها المكدود :
— ما هذا يا سيدى ؟ هل فقدتم عقولكم حتى زين لكم أن كل شيء تشترونه بالمال ؟ !

ثم وقفت قائلة : أرجو المذرة فإننى متعبة .
وما كان ذلك الفتى المغرور أن يتقبل الصفحة صامتاً ولو كانت من كف أنثى ، لأنه قام متثاقلاً ويده تتحسس موضع السلسلة في أحد الجيوب حتى إذا ما استوى قائماً كانت يده تديرها على مهابته أنا ونقضا . وقد علت شفتيه ابتسامة مخزية خفيفة . ثم سار إلى الباب في مشية مسرحية ، ودرية من خلفه يأخذ الغيظ منها كل مأخذ ، حتى إذا ما سمعت بوق سيارته يدوى في الخارج تهافتت على سريرها باكية منتحبة .
ودفنت رأسها في إحدى الوسائد حتى لا ترى إلا في الظلام ، ثم جعلت تستعيد الماضى فترة فترة :

لقد عجزت ياربى . . . عجزت تماماً . . . كنت أتخيل في بعض الأحيان أنني أستطيع أن أصنع لنفسى السعادة . . . فأطلت على الأقدار من نوافذ السماء . . . وجعلت تصنع لى الشقاء ! !
ففى مر . . . آه فى مريض . . . أصبحت عاجزة عن أن أذوق طعم الحياة . ثم صرخت كأنها مجنونة : راضى . . . لقد كنت طفلاً أبلاً . . .
كان فى استطاعتك أن تحتفظ بى لو أنك كنت قوى الساعدين . . .
جعلتنى أفلت وباعدت بينك وبينى حتى فات الأوان ونام القلب فى مغاور النسيان . . . لم تتبعنى أنت إلى مكان . . . ولم تكن قويا بحيث جعلتنى أبحث عنك . . . فضاعت علينا الفرصة .

وسكنت حتى تسترد أنفاسها :

ثم انقطعت عن الناس مدة طويلة في سكرتي الفنية . . ثم أحسست بالوجود حين عثرت على منصور !! ثم ظهر راضى فى وقت غير مناسب كما يظهر الزوارق بعد أن يغيب الغريق ، فدفعت راضى برجلي لا يدي ، لأن بين يدي رصيда من الرجولة كان فى منصور ، فإذا به قد كان فى يوم ما زوجا لصديقة ، وهو حتى الآن والد . . ولكننى . . (كانت تتكلم ورأسها مدفون ، ثم رفعت الوسادة حتى بدت عيناها اللامعتان وأكملت قولها) ولكننى أحببته . . ثم . . هاأنذا سأفقده .

وعادت فدفنت رأسها مرة أخرى واستطردت : لماذا يظهر كمال على الأفق فجأة هكذا ؟ . . مال . . حرير . . قصور . . أشياء كثيرة . لقد سئمت !! ثم تعتدل لتستلقي على ظهرها فى الفراش فتبدو كأنها خارجة من إحدى المعارك :

سئمت ياربى . . أتعنى أن تغيب عن ذهنى معان كثيرة فرحت بها يوم عرفتها ، وتكون فرحتى اليوم أعظم حين أحس أنها غابت عني . أريد أن أكون . . ماذا أكون ؟ . . امرأة . . لا أكثر ولا أقل : امرأة كأي واحد من هؤلاء اللاتي لا يعرف أحد أسماءهن ، ولا يقولون عنها سوى أنها حرم فلان . . منصور . . لا تجعل بعضنا يفقد بعضا حتى لا نعيش تعساء !!

ثم تسبل أهدابها كأنها على عتبات النوم ، وتستأذن عليها خادمتها بنقرة خفيفة وتدخل باكية ذاهلة خائفة مرتاعة ، لأنها قلقّت عليها فأخذت تغصو وتروح فى الممشى أمام حجرتها حتى آن لها أن تنهى مما كانت فيه .

وأذنت لها بالدخول فأقبلت عليها في مثل حنان الأمهات قائلة لها :
— فنجان من القهوة ، أو كوب من عصير الفاكهة ، لينعشك
يا سيدتى ؟

— أم مبروك .

— أزعجتى يا سيدتى . . جعلنى الله فداء لساعة واحدة تتألمين فيها .

— أم مبروك . . . تقدمى نحوى . . . خطوة أخرى . . . خطوة

ثالثة يا أم مبروك . . . اجلسى على حافة السرير أمامى هكذا وأنا راقدة . . .

افعلى ما أقوله لك فلست محتاجة إلى قهوة ولا عصير فواكه . . . أسمعين ؟

امسحى شعرى كما يفعل الأمهات . . . أجل . . . أجل . . . أنت أم . . .

كانت أمى تفعل هكذا حينما كانت ترانى حزينة . . . ربقى كتنى

يا أم مبروك . . . أحسنت فى هذا كذلك . . . قبلينى فى جيبينى ثم فى

خدى الأيمن ثم فى خدى الأيسر ، ثم امسحى على شعرى وقولى أخيرا :

لتذهب عنك الآلام يا بنيتى . . .

آه . . . أريد حنانا .

هل تربيتى بخير ؟ فتهدت ولم تجب . فقالت درية :

ما عهدتك غشاشة طوال هذه السنوات . . . نعم . . . أنا أشعر بكل

شئ . . . إننى ذابلة .

فقامت المرأة من على حافة السرير دون أن تستأذن ، ثم ذهبت إلى باب

فى الحجرة يفتح على إحدى الشرفات ففتحته ، فنظرت درية مستغربة من فعلها

على حين كانت الخادم واقفة فى منتصف الغرفة ، وهى تشير نحو الخارج :

— أترين يا سيدتى جمال الأزهار فى هذه الأصص ؟ . . . لن تستكمل

جمالها إلا يوم تمتد إليها يد جديرة بها . . . فتقطفها . . . ولم تنتظر حتى
تسمع جوابا . بل أقفلت عليها الباب برقق ، وانصرفت .

* * *

عزيزى راضى :

أصبحت أشم من خطاباتك رائحة الهدوء ، وأكاد أقرأ فيها عبارات
الرضا بين السطور .

قلت لك من قبل أو قلت لى : إن حياتى وحياتك مربوطتان بكوكب
واحد ، وقد كان هذا الكوكب فى منازل النجس ، ويخيل إلى الآن أنه
على الحدود ، وأنه سيعبر بعد قليل إلى منازل السعادة .

ألمح فى حياتك هذه المعانى وأخال أنك بدأت تحب . . . تحب زوجك
تلك التى كانت تحبك ، وكثير من الناس يا صديقى لا يؤمنون بحب الزوجات ،
ويرون أنه شئ مصنوع ، الفرق بينه وبين الطبيعى عظيم أشبه بما يكون
بين أزهار الرياض وأزهار الورق ، لكننى أخالفهم . واحذر أن تهمنى فى
رأى لأتى محروم ! ! أخالف هؤلاء الرجال الذين لا يقدسون نشأة الحب فى
ظلال الزواج ، مع أنه نبت نباتا صريحا واضحا مكشوفاً ، لا يخفى أحد
اللاعبين فيه ورقة واحدة .

وهكذا بدأت تسعد ، وبخاصة بعد أن رأيت صورة الدنيا معكوسة
فى المرآة . . . فى سواد عيني وللك الصغير ، فصارت كأنها ملكك .

وأنا كذلك كوكب نحسى عبر الحدود . . . وبدأ يدرج فى أرض
السعادة . "أ كنت تتوقع أن تسمع منى هذا الاعتراف فى يوم من الأيام ؟ !
لكن هذا قد وقع . . . وكان حقاً لا مرية فيه يوم تسلمت رسالة عليها خاتم
الريف ، يقول لى كاتبها أبشر يا سيدى :

قرأت هذه الجملة فغامت عيناى كأنما استل منها نور ، فطويت الرسالة حتى أسترد قواى ، ثم عاودت نشرها لأقرأها فإذا بى أرى فيها أشياء عظيمة : « تستطيع أن تحضر فتؤجر أرضك أو تبيعها أو تزرعها بنفسك لأن « أبو الغيط » قد قتل » .

قتل . . ؟ كيف ؟ لقد هضم جحما بناره وزبائنه وشياطينه ، فكيف مزقت بطنه رصاصة ؟ .

وطويت الخبر حتى عن نفسى فلم أعد أحدثها به ، فقد يكون هذا الخطاب مكيدة أو دعاية سخفها عميق .

وتناولت فطورى ثم استلقيت فى سرى كسلان خاملا ، وجعلت أتصفح جريدة الصباح فراعنى أن أرى فيها صورة القاتل والمقتول ، وكأنما تولت هذه الصحيفة عنى وعن الناس تأبين الفقيد العظيم ، يوم قالت عنه على وجه الإيجاز : إن كثيرا من الحريات المخلوقة فى هذه المنطقة ستتنبس اليوم أنفاس الحياة .

وقد فات مرسلها أن يقول شيئا آخر ، فاته أن يقول : وكثير من الأرزاق المحبوسة ستنتطلق فورا فى طريقها إلى مستحقها . . . والبغى مرتعه وخيم ! !

* * *

قرأت درية فى عيني كمال بك يوم زارها معانى متعاقبة من الإغراء والغزل والشماتة جعلتها تتدبر موقفها بشكل قاطع ، وكانت حريصة على ألا يطول الوقت لأنه من المحتمل جدا أن يذيع هذا الفتى المغرور بين الناس نبأ مقابلة درية له فى هذه المرحلة المرحفة الحساسة التى تقطعها العلاقة بينهما وبين خطيئها ، وإذا فعل هذا فلا يعلم إلا الله لون النهاية الذى تنتهى إليها القصة .

وطلبته بالتليفون في بكرة اليوم التالي ... طلبت منصوراً ، وكان صوته خشناً غير صاف يدل على أنه انتزع من النوم ، وليس ذلك لحسب ، بل يدل على أنه أفرط في الشراب في الليلة الماضية . وقد اعترف لها بذلك في إحدى الليالي التي سادتهما الجفوة فيها ساعة قال لها : إنك بمعاملتك هذه ستخلقين مني سكيراً . . أريد أن أنسى فأشرب ، ثم أفيق فأوازن بين المسحور والسكران فأرى الأخرى خيراً من الأولى ، فأعود فأشرب . ذكرت هذا فاضطربت أنفاسها والسماعة في يدها فأقفل الطريق ، ولكنها عادت فطالبتة فلم يرد ، فلما ألحت سألت في جفوة وخشونة :
— نعم يا سيدي . . أرجو أن تكون قد أخطأت الرقم . فأجابه صوت رقيق :

— أهذا أنت ؟ . . . أنت « قومندان » الفرقة ؟

فشكل في صاحبة الصوت :

— عن أي فرقة تتحدثين يا سيدي ؟

— عن الفرقة التي يكون لها « قومندان » في العادة .

— آسف . . . لأنني . . .

— احذر أن تقفل الطريق لأنني أطلب فرقة المطافي .

فتلعثم وتخير لأنه لا يزال شاكاً في صاحبة الصوت ، على حين استطردت هي بلهجة ألفها فعرفها :

— أأنت محقة في هذا الطلب ؟ . . . ألسنا نشعل النار في ملابسنا

بأيدينا ؟ . . منصور : لا تناقشني من فضلك . . . كفانا ما فات !!

ومضت فترة جد قصيرة طعم بعدها في بيتها صنفاً من الحلوى شهياً حاراً ،

كانا يتصبران به معا حتى تنتهي أم مبروك من إعداد مائدة الفطور !!

كانوا يتكهنون في كل صحيفة وناد عن المسكان الذي يقضى العروسان فيه شهر العسل لأنهما غابا عن القاهرة فجأة وبلا إنذار. وشاء هذان اللذان طالما أحالا ظلام الليالي إلى أضواء وأتغام أن يفرا من الضوء والنغم ، ليتذوقا طعم الحياة صرفا خالصا غير ممزوج ، لا يخالطه شيء .

وتوفرت لهما هذه الحياة على ساحل البحر . . . هنالك ، على شاطئ بكر لم تتحكم فيه يد الإنسان بتنسيق ولا صنعة . رسمت تعاريجه الطبيعية وكتبت على رملها الأمواج سطورا أملاها عليها البحر .

هنالك في « بلطيم » والصيف في أخرياته ، أقام العروسان . كانت الغالبية العظمى من المصطافين تحزم أمتعتها قافلة نحو الجنوب وكانت أنسام الخريف تتحرش دائما بالموج ، ولم يبق من نزلاء هذا « الفندق » الناظر

إلى البحر إلا أفراد قلائل ، فيهم الفنان والشاعر ، ومن لم تتح له فرصة
النزوح إلى الشاطئ أيام كان الحر في غنفوان شبابه . وفيهم كذلك
درية ومنصور .

غنت له في الخلاء على موسيقا الهواء وصفق لها البحر وأهدى إليها
منصور آخر الأمر طاقة من الأزهار البرية وطاقة أخرى صنعها في وقتها . .
وكانت من القبل .

وكانا يقومان برحلات طويلة على الأقدام . يمشيان فيها حافيين
على الرمل الذي يتاخم الماء والذي لا يستطيع أن يحمل أحدهما فتغوص فيه
القدم ثم تخرج برفق تاركة رسمها على الأرض . وتطول الرحلة وهما لا يشعران
أنهما تطول لأنهما يركبان فيها مركبا من النجوى والغزل . حتى إذا ناداهما
موضع ليجلسا فيه جلسا يخوض عليهما السكون . وتمسح عليهما يد النسيم
ويبدأ واحد منهما فيؤكد للثاني أنهما عاشا في هذه الأيام عمرا كاملا ،
نام فيه الزمن وجرت عليهما المقادير بكل ما يسعد . حتى لو أن موجة من
الأمواج زحفت عليهما ثم اختطفتهما وهما في سكرة من سكرات العناق ،
وفرت بهما إلى اليم ، ما حزننا على شيء تركاه كانا يؤملان فيه وتخلفت به
عنهما الآمال .

وكانا يذكران آدم وحواء حين يجلسان على الأرض في نهاية الرحلة .
وينظران فيريان الفندق بعيدا بعيدا ، والدنيا خلاء . . سماء وماء وأرض
لا تخطر عليهما قدم .

ورحلت عن الفندق البقية الباقية من رواده لأن ليالي الحريف بدأت

تلبس زداء البرودة وبخاصة على الشواطىء وفي مثل هذا المكان
كانت الوحشة تخيم عند مدخل الليل فتستحيل هذه البقعة إلى مقام
كريبه لا أنس فيه . . . فيه ظلام وموج وسحاب يملأ السماء قلما تطل
من بين تفاريحه النجوم . كل هذا والعروسان لا يحسان بردا ولا وحشة
ولا مخاوف . على حين كانت صاحبة الفندق قلقة ضجرة تتململ وتتزى
في انتظار المعجزة . إن المال لا يرضيها ولا يغريها لأنها تعلم — وإن جاهدت
في إخفاء شخصيتهما — أنهما زوجان قرا من متاعب الشهرة وحاولا أن
يقضيا هذه الفترة من عمرهما على الوجه الذى يقضيه كل الناس . ولكنها
في انتظار أن يكشف أحد الصحفيين مكانهما . وبذلك تتحقق للفندق
شهرة لم تكن تحلم بها كفيلا بأن تدر عليها في مواسم الاصطياف المقبلة
أ كياسا من الذهب .

كانا في اليوم العشرين من شهرهما السعيد . وكانا على إحدى الربا
يتناجيان . . . يذكران الماضى ويضعان للمستقبل خطوطا باسمه جميلة . لكنهما
أفاقا فجأة من الأحلام على صوت أجش ينبعث من خلفهما وكان صاحبه
يقول فى نعمة لا تخلو من السخرية وإن كان فيها حلاوة :

حظ سعيد !! . . . هل كنتم تظنان أن صاحبة الجلالة تعجز عن
مطاردتكما ؟ ؟

والتفت آدم وحواء فى وقت واحد فألفيا السيف قد سبق العذل :
كان وراءهما مراسل ومصور لإحدى الصحف المنتشرة المعروفة . وكان
على وجهيهما آيات من الجهد والظفر جعلت العروسين يتسمان ابتسامة

التسليم . وعادوا المصور عمله فصورها وهما يتسلمان . ونالت صاحبة الفندق ما حلت به وما تحملت من أجله عبوس الظلام وعجيج الموج على الشاطئ ، وقد كادا يتلفان أعصابهما . لأن أعداد اليوم التالى من هذه الصحيفة طلعت على الناس حافلة بالأنباء والصور ، فأضحى اسم الفندق وصاحبته على كل لسان ، لكن هذا الحادث كل خاتمة سريعة لشهر عسل لم يتم الثلاثين ، فقد عاد العروسان فى اليوم التالى إلى عشهما فى العاصمة .

وتمر السنون ... وما أسرع ما تمر السنون !! وسر ذلك أن مرورها عمل لا يحظى بانتباهنا ... إنه كدقات الساعة نضعهما تحت الوسادة ثم نضع عليها خدودنا ولكن آذاننا لا تصنى إلى الدقات . وقد يحدث مرة أن ننتبه إلى صوتها . فنقول : عجيب ... إن الساعة تدق ... إنها تسهر على الوقت ونحن نأثمون عنه ... وهكذا تمر السنون ...

وأصبح الحبيبان زوجين ...

زوجين يقسمان العمل ، فيسعى الرجل فى الخارج ، وتقعده الأثني فى البيت لتشرف على ترتيبه وتنظيمه ، وتقدم للزوج الطعام ... وتضع له الأطفال .

وتمر بهما حوادث عادية لا يؤبه لها فى أيامها كالشروق والغروب سواء بسواء ، حتى يموت طفلهما الأول فى يوم يكمل ثلاث سنوات من عمر حياتهما الزوجية .

ثم يبدأ التحول ...

أخذت تحس أن حياتها فراغ ، وأن حبيبها يسهر على فنه وشهرته أكثر مما يسهر على حبيبته وزوجته . وبعض الزوجات يتطلبن من رجالهن أن يجعلوا الحياة في بيوتهم حياة غرام دائم إلى آخر العمر !! وتكاثرت هواجسها وعظمت أوهامها :

كانت تتخيل في بعض الأحيان أنها مظلومة . والذي هو أعظم من ذلك وأنسكى أنها كانت تتوهم في بعض الأوقات أنها مخدوعة . . . والسر في ذلك أن حياة زوجها الفنية قد اطردت اطرادا عجيبا ، حتى أضحى هو الموسيقى الأول ، وأصبحت شهرة مغنية ما مرتبطة بأن يضع لها الألحان .

وبدأت أسماء جديدة تلمع . وأخذ اسم واحدة منهن بالذات يخلق ويسمو فيتطلع إليه الناس ، حتى أن بعض الصحف قالت عن هذه المغنية : إنها ستشغل بلا شك مكانا لا يزال شاغرا منذ اعتزلت درية الغناء .

وكأما عز عليها أن يورث عرشها وهي على قيد الحياة فققدت مرحها وفقدت نضرتها بعد مرحها بقليل . وانفتحت أمام ناظرها هوة معنوية من الزمن أصبحت تعجب معها من هؤلاء اللائى يقضين في البيوت عمرا كاملا . واصطبغ مزاجها بصبغة عصبية حادة جعلتها سريعة السمعة حتى قال زوجها لها ذات ليلة وهما جالسان على المائدة : نخيل إلى ياميدتى أن نصف الوقت الذى قضيناه معا في بيت الزوجية كان دموعا ... إذا حذفنا منه ساعات النوم ...

فما كان جوابها إلا أنها أجهشت بالبكاء إجهاشا أدخل على نفسه قلقا وخوفا وإشفاقا فأقبل عليها يلاطفها حتى كفت فجعل يسألها :

— تستطيعين أن تكوني صديقة صريحة ... إن لك زوجا لا يتردد
أن يضحك السعادة مهما كلفته . فقالت وعيناها لا تزال نديتين :
— هل أفهم من هذا أنك ضائق بي .
فقال بجذ وصرامة :

— مطلقا . . . مطلقا . . . لكنني حريص على أن أزيل أسباب
آلامك . . . إنني أكنم عنك شيئا هاما ياسيديتى .
— لم تعد تقول : يا حبيبتي ! ! فابتسم :
— قصدت أن أقول يا حبيبتي . . . وهذا الشيء الهام هو أن عحتك
في تدهور مستمر . وذلك . . .

— ألم أعد أفتنك كما كنت أفعل قديما ؟ . .
— هل أفهم من هذا أنك تؤثرين أن أكنم عنك أمر الشررة
حتى تصبح حريقا ؟

—
— إنك تطرقين في اشمزاز محزن . . . كنت أعتقد أنك ستكوينين
عونى في حياتى العادية والفنية على السواء .
— فأصبحت ثقلا عليك .

— آه . . . ربي أعنى حتى أصل إلى نتيجة ، ولا سبيل إلى ذلك
إلا بأن أسألك فتجيبى : ما الذى يضايقك في الحياة ؟ ؟
— منذ مات ولدنا وأنا أشعر بأن الدنيا خالية خاوية .
— لكن ذلك قد انقضى عليه ما يقرب من عام .

— لكننى أحس بالذى قلته لك .

— وماذا تظنينه علاجاً ناجحاً .

— لست أدري ... ولوعرف كل مريض دواء دائه ما اشتكى مريض 11

— قول جميل كذلك . لكننى أسألك قائلاً : ماذا تظنين ؟

— إن البيت لا يراك إلا فى أخريات الليل .

— أليس ذلك عملاً ؟ !

— وهل نحن فى حاجة إلى كل هذا المال ؟

— وهل كنت تطالبين المال أولاً وقبل كل شيء ، أيام كنت شغل

نتمتع الشاغل ؟

فلم تجبه إلا بالدموع .

فهز رأسه لأنه فهم شطراً من دواعى أحزانها . ثم التقى ناظرهما
اض من عينيه عتاب تشوبه المخاوف ! ثم تركها فى مكانها وذهب وحده
وى إلى فراشه .

وثار فى جو المنزل دخان غير كثيف كان منصور يراقب وجهها
من ورائه فلا يرى فيه إلا الدبول والحيرة . وجن عليهما الليل ففأتحها
الحديث فما كان منها إلا أن رجته فى أن يسمح لها بأن تعطى دروساً
« البيان » . . . لمن ؟ للآنسات فحسب من كرائم الأسر . يجئها
بيتها فينلن فنا وتنال هى تسلمية ومتاعاً .

وقد كان . وجعل عددهن يزداد شيئاً فشيئاً حتى صار فرقة . وكن
نتمعن عندها فيسمرن ويدرسن . ودخل منصور عليهن ذات مساء

فسمع وهو على بعد قريب صوتا شجيا ينبعث من الحجرة التي كن فيها .
ولم يكن هذا الصوت سوى صوت درية ، فتريث حتى فرغت من أغنيتهما
وأطل من جانب الباب فإذا هي واقفة في وسط الحجرة وكأنها على مسرح
وإذا بالفتيات يصفقن وتعبر لمن عن شكرها ، بالحناءات متوالية رشيقة ،
فوضع زوجها يده على جبينه ثم تنهد . .

ثم اختفت هذه المناظر بعد أن أبدى لها عجباً يخالطه استمراز .
وساعد على اختفائها أن درية وضعت أنثى وأن حالتها الصحية لم تعد
تعينها على ذلك .

ولم تحقق الأيام رجاءه فيها على مر الزمان . فبدأت المشكلة تتعقد .
كأنما كانت درية تتأذى بأن تسمع اسما يردده الناس بعد اسمها في
تفاؤل واعتزاز . وكأنما آذاها من زوجها أن يكون له يد في رفع هذه
التي يرفعها الناس إلى أعلى . لأن « منصورا » كان يعملها بالحناءة فنشأت
في بيته مشكلة أشبه ما تكون بخيوط الغزل التي اشتبكت أطرافها واختلطت
أوائلها بأواخرها . فكانت يد الزوجين تضل في أثنائها كلما امتدت إليها
بالحل ، ثم ينظران في آخر الأمر فيريان أنهما زاداهما تعقيدا على حين كانا
يظنان أنها في طريقها إلى الحل .

وحق المذيع كانت درية تثور عليه . . . وأصبحت كارهة لألحان
زوجها لأنها تصاحب غناء امرأة لا تحب أن تسمع صوتها . وأمسى الدخان
الذي ثار في البيت في هذه المرة ، أشد كثافة من أى يوم مضى . لأن
الزوج فارقه رفته وتخلت عنه شففته بها ، وعأوده طبعه الشديد وشخصيته

لعارمة لأن أطباء الأمراض العصبية وأرباب العلوم النفسية أكدوا له
بما بينهم وبينه أنها سليمة واسكنها تعالج كتبنا قاسيا لمأرب من المآرب
بغاية من الغايات .

وكان الزوج يعلم حقيقة هذه الغاية لكنه نغم عليها أنها لم تحقق آماله
فى أنه كان أسمى غاياتها وأعلى مراتب ما ترجوه من الحياة . فثار الدخان
مرة ثالثة وكان أشد كثافة من أى يوم مضى . وكانت الليلة قاسية
هى الأخرى كأن الطبيعة فيها كانت برمة بالناس كان الشتاء
كاشرا عن أنياه ، والسماء مطموسة الكواكب . وهنا لك فرقة رعد
بين كل حين وحين . وكانت درية تقول ووجهها شاحب مستطيل
ودموعها تنحدر على خديها :

— وليس أقسى على نفس أى انسان . من أن يشقيه من كان
يرجو أن يكون هو مصدر السعادة . . .
فقاطعها غاضبا :

— لقد كنت حريصا على إسعادك إلى حد أننى ارتبكت
نعم ارتبكت فلم أدر ما الطريقة التى يمكننى بها أن أهدي إليك
السعادة وينيل إلى ياسيدتى أن بقاءنا فى مكان واحد أمر لم يعد يطاق .
فسألته بنظرة فيها تحد قليل :

— ومن السبب ؟ ؟ . . .

— أنت .

— بل أنت !!

— وربما كان شيئا خارجا عن شخصينا نحن الاثنين .

— أتعنى أن تقول : إن بيننا شخصا ثالثا ؟

— هكذا السيدات ... يسارعن إلى هذا القول البديء دائما ليقطعن على الرجال طريق التقدم . . . بل وطريق الرجوع .

كان لا يقصد هذا الذى أشارت إليه ولكنها لم تترك له فرصة ينفي فيها هذه الأفكار حتى جاءت عبارته الأخيرة أشبه شئ بأن تكون اتهامات فثارت فيها كبرياؤها القديمة . . . ثارت بغتة وبلا إنذار كأنها إعصار مدمر وانبعث مع قيامة الكبرياء حنين إلى العرش . . . إلى العز القديم والتصفيق والهلثاف . فصرخت فى وجهه قائلة له ، بعد أن انتفضت واقفة ووضعت يديها فى خصرتها :

— كيف اجترأت على أن تقول مثل هذا الذى قلته ؟ .

فلم يرد . ولكنه أقبل عليها حتى سامت وجهها وجهه ، ثم نظر فى عينيها وأهوى على خدها بلطمة . . .

ومضى وقت غير طويل كانت هى منكبة بعده على سريرها تبكى وتنتحب . أما هو فقد كان فى غرفة الاستقبال جالسا كأنه ضيف أو كأنه فى انتظار ضيف . على حين كانت أم مبروك تجمع الثياب وتعد الحقائق . . لمن ؟ لرجل سيفارق بيت امرأة . . وكان هذا المعنى يدور فى خاطره فيحس فى أعقابها بالدوار . . وانقطع النور عن الحى بأسره والزوج يجتاز الحديقة فى طريقه إلى الباب وخيم على البيت سكون مطبق موحش بعد أن خرج منصور . كانت الدنيا صاحبة فى الخارج كأن الطبيعة كانت فى مأتم ، أما فى الداخل فقد كان هناك سكون . . . كانت أم مبروك تبكى فى صمت .

ودرية مكبة على وليدتها تلح عليها بالقبلات كأنما تريد أن تثبت لها أنها
جديرة بإسعادها كل الجدارة . . والببل . لم يكن يغرد . . كان يرسل
بين كل فترة وفترة وصوصة قصيرة مبتورة حزينة كأنه طفل يحلم بالبكاء .
وتمر أيام معدودة يقيمها منصور في بيت مستأجر جديد يعيد فرشته
وتأثيثه ، ويفتح الزوج إحدى حقائبه فيروعه أن يرى بين ثيابه شيئا لم يكن
يتوقع أن يراه . . . رأى وشاحا أبيض من أوشحتها هي . من أوشحة
امرأة أترع لها كأس المودة خالصة صافية نظيفة . . . أما هي ؟ . . .
آه . . . كيف ينسى ؟ لقد بذلت له أشياء كريمة في زمان مضى . بذلت
له وسهرت من أجله ولكن . . . هناك في الماضي زلة واحدة تقهر
النسيان .

كان الوشاح بين يديه وهو واقف بقرب صوان الملابس ، كان أبيض ،
وقد رسمت على حواشيه زهرات منتشرة صغيرة خفيفة اللون ، تمثل أزهار
البنفسج . وكأن بقية من عطرها كانت تفوح من بين طياته . وطافت به
الذكرى فأغمض عينيه . ثم نظر ، ثم ذكر ، فأمسك الوشاح من إحدى
زواياه ورفع به ذراعه اليسرى بعد أن أشعل عودا من الثقاب وجعل
يدنيه يمينه قليلا قليلا . حتى إذا ما بدأ اللهب يلتف طرف الوشاح قذف
بالعود على الأرض وداسه برجله كأنما أحس لفح اللهب على شغاف فؤاده
لكن يساره بقيت مرفوعة بوشاحها وجعل بصره متجها إليه فترة
في جمود وذهول كأنه يذكر لياليها السعيدة . ثم . . . قبله طرفا طرفا ،
قبله أربع مرات على كل زاوية قبلة ، وخص التي تعرضت للهب بقبلة أحر
من اللهب ! ! ثم طواه وجعله حيث كان .

كان يذكرها كلما رآه وان استحكمت بينهما الجفوة . وكان يسائل نفسه عن اليد التي دست هذا الوشاح بين ثيابه فتجيبه بأنها يد درية ، وقد تخطر الحقيقة على قلبه فترة أخرى ولكن . . . خطرة خفيفة ، لأن لمس الأوهام كثيرا ما يكون أحلى على القلوب من لمس الحقائق . كان يقول : ربما كانت أم مبروك هي التي جعلت وشاح سيدتها بين الملابس متفائلة ببياضه على يكون في يوم من الأيام راية صلاح . . .

ولكن المقادير أمدت الحريق بالحطب ، حين أعلنت درية بعد أيام أنها ستعود إلى الغناء ، ففرح الناس ، وحزن منصور . . . وأظلم المساء فكان سعيد في حجرة الاستقبال من منزل درية ينتظر دخولها مثل ما كان يفعل في ليال خلت .

كان الطائران القديعان لا يزالان يتراقصان على كأسيهما جميل يحرق إليهما مفكرا متعجبا وعلى ثغره ظلال ابتسامة . حتى إذا مادخلت درية رأى أن الزمن قد نال منها ما لم يستطع أن يناله من هذين الطائرين . . . رآها غير التي عرفها وإن جاهدت في أن تخفي آثار الزمان . وخفق قلبه طبعاً . واضطربت أنفاسه . ودس بين ثنايا حديثه كلمات كانت فيما مضى أحلاماً عريضة دارت حول درية . . ثم نسيتهما الليلي . على أن قلبها نفسه لم يكن مستعداً لأن تنفتح فيه نافذة صغيرة لأن تجربتين قاسيتين مرتا به . كانت أولاهما في ربيع العمر . وكانت أخراهما في خريفه .

لكنهما لم تجدا في حياة الغناء المتعة الأولى التي وجدتتها من قبل . . . كانت كالندي قام عن المائدة فغاب ثم عاد إليها فلم تعد معه الشهية الحادة .

وقابل منصور رجوعها إلى الغناء بعمل سلبى بارع هو أنه لم يضع للمغنيات جميعهن لحنا من ألحانه .

وتمضى سنوات تجاوز بها درية سن الأربعين وتجلس ذات مساء لتستعيد ماضيها كما يفعل الناس ، حتى إذا ما انتهت إلى الحاضر ورأت أنها لا تزال متربعة على عرشهما على الرغم من كثرة اللأى يدرن حوله طفرت من عينيها دموع كبيرة ، لأنها تخيلت ذلك اليوم الذى ستمتد إليها فيه بعض الأيدي لتنزله عنه كارهة غير مختارة . فخطر لها خاطر دفعته عن نفسها ولكنه لم يشأ أن يتركها . وخفى ذلك الخاطر أن تعزل درية الغناء مرة أخرى طائفة مختارة بعد أن تبذل للجمهور في حفلة أخيرة نماذج من الفن ينسج حولها الذكريات فى المستقبل . وقد كان .

وتمر السنون . . . وما أسرع ما تمر السنون .

وسر ذلك أن مرورها عمل لا يحظى بانتباهنا .

لأنه كدقات القلب . إن سمعناها ، أو أحسنا بها . فمعنى ذلك أننا

فى خطر !!

وتنهجم الشيخوخة على أم مبروك . ويجف عودها فلا يستطيع الطب أن يعدها بشيء . وتحشرح روحها فى ليلة من الليالى وتكب عليها سيدتها دامة السينين وهى تسألها الرضا والدعاء فى الساعة الحرجة التى يمر بها كل حى . وتفعل الخادم فتدعو لها بهدوء البال ، ثم تستغفرها بعد ذلك من زلة عملتها . فتراجع درية إلى الوراء قليلا من عجبها ثم تصفى إلى خادماتها الأمانة وهى تقول لها :

كان ذلك من عشر سنوات . . ليلة فارقك . . على الرغم منى سيدى منصور . . ثم سألتنى بعد ذلك عنه فكذبت عليك . . أنا التى وضعت وشاحك الأبيض بين ملابسه . . كنت أرجو . . واسكن الله لم يشأ . . ثم أغمضت عينيها فى إغفاء أخيرة .

أما منصور فقد سكن برجا عاجيا لم تكن تحوم حوله امرأة ما . ولم يكن يدخل عليه فيه إلا ابنته التى كان يحبها هى والموسيقا ولا شيء فى الدنيا بعد ذلك . وقد درت عليه الوحدة مالا وشهرة لم تمنحها من قبله لإنسان .

وتمر السنون . . وما أسرع ما تمر السنون ! !
وسر ذلك أن مرورها عمل لا يحظى بانتباهنا .
لأن الشمس تشرق وتغرب بطريقة واحدة منذ فطر الله الشروق والغروب . . لكن الشروق والغروب يتركان على رؤوس الناس زبدا كالذى تتركه الأمواج على الشواطىء .

ذلكم هو الشيب ! !

كانت درية تراقبه فى شعرها أمام المرأة فى أسى وحسرة على حين كان هناك خيال شباب يتراقص أمامها على بعد . كان خيال ابنتها التى بدأت تنفتح مع تبشير الشباب .

كانت ترى الفتاة والوجود ، والموروث والوارث فى صفحة المرأة وهى ترجل شعرها فى ذلك اليوم ! ! أو تتردد فى هذه اللحظة القائمة فى نواحي الغرفة تغريد بلبل فزاد من انقباضها . . لأنه كان جديدا ورث القفص فى أعقاب بلبل شاخ . . ثم مات ! !

ثم يزورها سعيد في ضحا يوم من الأيام بعد انقطاع طويل . وتقابل
رية مرحبة مشتاقة لأنها كانت تكبر فيه الحياء والوفاء فقد كان هو الرجل
لوحيد الذي يرسل إليها بطاقاته في المناسبات إن لم يزرها بنفسه .
ولم يتغير بتاتا . احترمها وهي على عرشها ، واحترمها بعد أن تخلت عنه
فحملت له في نفسها ذكريات محبوبة . ودخل حجرة الاستقبال ، وجلس
في انتظار قدومها وكان قريبا من الثلاثين . . من الطائرين اللذين نذكر
قصتهما . . فرآهما في وضع غريب . كانا واقفين أمام كؤسيهما ينظران
ولا يتراقصان كما أنما لمستهما يد الزمن ، فكفا عن الحركة ! فأغرورت عيناه
بالدموع . ثم كانا موضوعا للحديث درية وسعيد بعد أن دخلت عليه كان
يقول : انظري . . ظننتهما فيما مضى خارجين عن نطاق الحوادث . .
ثم سكت ، ثم خلع طربوشه فرأت على رأسه زبد الليالي . . وكان
كثيرا . . أكثر مما كانت تظن . وامتد بهما الحديث حتى قال سعيد :
هنالك في حياة كل إنسان ياسيدتي ثغرة تبقى مفتوحة حتى آخر العمر
وكثيرا ما يكون بقاؤها هكذا خيرا وأحلى مما لو قدر لها أن تسد .
لأننا في أواخر عمرنا نشعر بالسأم والملالة إن تحقق لنا كل ما كنا نشتهي ،
أما إذا كان لنا فيما مضى أمل لم نلّه ، فإنه يتحول في هذه السنوات إلى ذكرى
مدفئة حارة تسري حرارتها في برد شيخوختنا فتخفف عنا عناءها شيئا ما .
فابتسمت لأنها فهمت ما يعنيه . . . وقد كان يعنيه منذ سنوات طويلة .

ولكنها لم تمد إليه يدا ! !

ثم تمر السنون . .

ويخيل إلى أنها تمتد خطاها ونحن في أواخر العمر . . . تماما تماما .
كما يراقص سريعا سريعا لمب الشمعة قبل أن يتدفن في ذوبها المتراكم .
نعم وتمر السنون . ويوجه منصور بطاقات الدعوة إلى حفلة موسيقية خاصة
يستمتع فيها الناس إلى المعجب الرائع في قطعة وضعها هذا الموسيقى العظيم
وتكون أم فتاته بين الحاضرين وكذلك تكون بنته . ويمسك الناس عن
الهمس لأن رجلا وقف يعلن اسم المقطوعة الجديدة وكان اسمها « الوشاح
الأبيض » . . فذكرت درية حادثا قديما .

صب فيها حياته كلها ثم ختمها بدموع .
وكان بعض الأنعام يشق طريقه إلى زوجته فيتعرف عليها بين الناس
ثم يمسك بتلابيبها ويشدد عليها الحناق حتى تدمع عيناها .
وانفض الجمع وعادت الأم والفتاة إلى البيت . كانت الأم قانطة واجمة
أما الفتاة فقد كانت فرحة خفورا . وكان ذلك مدعاة لأن تقبل على أمها
لتسألها السبب . وهنا تثور في درية شخصية جديدة لمست جسدها بعنف
للمرة الأولى على التقريب . تلك هي شخصية أم درية . كأنما انبعثت من
قبرها في تلك الليلة لتتقمص جسد بنتها إلى مدى ساعات .
فاستحالت إلى وقار وحكمة وصراحة وحرص على الأنباء .

مسحت درية على رأس فتاتها ثم قبلتها وأجلستها إلى جوارها ونظرت
إلى السقف وإلى الباب وإلى قطع الأثاث قطعة قطعة قبل أن تتكلم . .
كانت كأنها تستلهم الأشياء ذكرياتها قبل أن تصبها في سمع بنتها ثم قالت :
كان ذلك في صدر شبابي أيام كنت ابنة رجل فقير . كنت جميلة
طموحا وأحببت ، لكنني خنقت قلبي هو ومن أحبنى واستمعت إلى نداء

طموحي . ثم أحببت أباك وأحبني وجمعنا عش الزوجية يا بنيق ولكنني
كنت سيئة الطالع . سيئة التصريف .

كان عطوفا ألوفاً يود أن يحقق لي السعادة بكل ما يطيق ، ولكنني
لم أعاونه على ذلك . حتى أنه حدث لنا ذات مساء بعد أن مكثنا ساعات
يجادل كل منا صاحبه لنعرف من منا السبب في إثارة اللخان في البيت ،
حدث أن قال لي : درية . . . لقد فقدنا السعادة !! فأجبت بكل جفاف :
نعم لقد فقدنا السعادة . فقال لي : عندي اقتراح أستطيع أن أوكد قدرتي
على تنفيذه . . . فنظرت إليه متسائلة مشتاقة فقال : هلم ننتحر معا ،
فرددت عليه بأعصاب تالفة ودموع مترادفة : نعم . . . هلم . . . ولكن
ما هي الطريقة ؟ ثم جعلنا نستعرض معا طرق الموت واحدة واحدة فبدأنها
بالنار ثم ختمناها بالأزهار . وارتفع في هذه اللحظة بكاءك ، فذهبت
إليك لأراك ثم مكثت معك حتى لم أر زوجي إلا في الصباح . . .
وهكذا عدنا فعشنا على الرغم من فقدنا السعادة . ثم افترقنا على الحياة !

لسكن يا بنيق أعود فأقول لك : لقد فقدت الحبيب الأول متجنبة
عليه ثم اتهمته بالحق أو بالباطل . . . اتهمته بأنه كان ضعيف الساعدين
فلم يستطع أن يحتفظ بامرأة !

وهأنذا بعد أن انقضى كل شيء أعترف لك أنني لم أكن مثالية
في حياتي الزوجية لأنني كنت مثل الرجل الذي اتهمته . . . كنت ضعيفة
الذراعين فلم أستطع أن أحتفظ بزواج !!

فأطرقت فتاتها وقد فهمت كل شيء ، على حين رفعت الأم وجهها إلى
السماء مبتهلة أن تحظى فتاتها بحياة زوجية سعيدة .